الغزو الفكري

وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر

الدكتور علي عبد الحليم محمود





الغزو الفكري

وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر

الدكتور علي عبد الحليم محمود

الأستاذ بكلية اللغة العربية
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بالرياض

الطبعة الاولى
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

" افتتاح "

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد إمام الأنبياء والمرسلين وبعد :

فإن المرحلة التى يعيشها العالم الإسلامى اليوم من أشد المراحل دقةً وتشابكا ، ومن أهمها فى تنوع أساليب الحرب التى تشن عليه ، وأعنى بهذه المرحلة هذين القرنين الأخيرين من الزمان ، اللذين بلغ فيهما أعداء الإسلام غاية مايحلمون به من قوة ، وبلغ فيها العالم الإسلامى غاية مايمكن أن يصل إليه من تفكك وانقسام وفرقة وخصام .

وليس خافيا على من يتدبر ... أن وصول العالم الإسلامى إلى تلك الحال إنما جاء نتيجة لوصول أعداء الإسلام إلى حالتهم تلك من التفوق فى مجالات التقنية والقوة المادية ، بينما أهمل المسلمون الأخذ بأسباب التقدم العلمى ، مهمومين بما يعانون من متاعب ، مصروفين عما يوجب عليهم دينهم من ضرورة الأخذ بكل وسيلة تمكنهم من سيادة الأرض وإحقاق الحق وأطر الناس عليه أطراً ، مصروفين عن كل ذلك بما دسّ لهم عدوهم فى حياتهم من سموم وبما ساقهم فيه من تيارات جارفة اكتسحت أمامها كل قدرة على مقاومة تلك التيارات .

لقد عاش العالم الإسلامى هذين القرنين يواجه من التحدى أشكالاً وفنوناً ... الغزو

الفكرى والإستشراق والتبشير والاستعمار فى شكل حماية أو وصاية أو انتداب . والاحتلال المسلح لكثير من بلدان هذا العالم الإسلامى .

ولقد كان فى دولة الخلافة العثمانية بريق من أمل فى أن تواجه هذا التحدى وتقف منه وقفة جهاد فى سبيل الله يستقطب ملايين من المسلمين . ولكن قوى التحدى ومؤسساته عملت بكل وسيلة لتقضى على هذا البريق من الأمل ، فوجهت لدولة الخلافة أعتى ضرباتها فى الداخل حيث أغرقتها فى الديون وفى الخارج حيث تحالفت ضدها جيوش أوربا أغلبها .

ولقد استطاعت قوى التحدى للعالم الإسلامى أن تصطنع من أنحاء العالم الإسلامى من يقفون من دولة الخلافة العثمانية موقف العداء — فى قصة مؤسفة يطول الحديث عنها وتحتاج إلى بحث مستقل — منخدعين بما أوهمهم به عدوهم من قوميات ومذاهب سياسية واجتماعية واقتصادية وبما اغرقهم فيه من تيارات تبعد بهم عن دينهم وتجرفهم إلى حيث يريد لهم هؤلاء الأعداء .

فكان هذا الغزو للفكر الإسلامى وتلك التيارات المعادية للإسلام والمسلمين .

وإن هذا الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام لمن الموضوعات التى تشد اهتمام الواعين من أبناء الأمة الاسلامية ، وتحتاج من الباحثين والدارسين إلى أن يبذلوا فيها من الجهد مايكشف عن خباياها ويوضح أبعادها .

ومما يحمد لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أن تطرح الكتابة فى هذا الموضوع على مستوى العلماء فى العالم الإسلامى فى مؤتمر الفقه الإسلامى ، وهى إذ تحمد على هذا العمل الجليل إنما يذكر لها بالفخر أنها تقوم بعمل كبير هو فى الأصل عمل كل جامعة إسلامية ، تعرف طريقها نحو خدمة الفكر الإسلامى والعالم الإسلامى .

ولقد كان للإسلام فى الماضى جولة مع أعدائه أهل الباطل والضلال

وأصحاب الأهواء المتجبرين فى الأرض ، ولقد حقق المسلمون انتصارات غير قليلة على هؤلاء وأولئك ومن ثم عادى الإسلام كل ضال وكل ذى هوى ، ووقف فى وجه هديه ومنهاجه كل طاغية وكل ظالم ، وقامت المعارك ضارية متعددة على مر التاريخ بين الإسلام وهؤلاء الأعداء .

ويخطىء من يظن أن الحرب بين الإسلام وأعدائه قد وضعت أوزارها ، ويكون أمعن فى الخطأ من يتصور أن أعداء الإسلام قد سكتوا عنه بعد أن تحالفوا ضد أهله فغلبوهم وجعلوا منهم أمما بعد أن كانوا أمة ، وفرقا بعد أن كانوا وحدة ، إنما الحق أن أعداء الإسلام يدبرون لحربه كل يوم وسيلة ، ويحشدون للوقوف فى وجهه كل يوم قوة ، وليس خطر الكلمة والفكر بأقل من خطر الجندى والسلاح فى المعركة الضارية التى يشنها أعداء الإسلام على الإسلام وأهله .

إنهم الآن قد سكتوا عن حرب الجنود والأسلحة ، ليشنوا حرب التشويه والتخريب للإسلام منهجه وتاريخه ورجاله وتراثه ولغته وقرآنه ، وتحالفوا وتآزروا وابتكروا حديث الوسائل وخبيث التيارات والأساليب ، فغزوا المسلمين فى قلوبهم وأفكارهم وأخلاقهم وأزيائهم وشنوا على العالم الإسلامى من الغارات مالا يخفى أمره على كل ذى بصيرة ، ووقفت الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات والفلسفات المعادية للإسلام يؤيد بعضها بعضا فى حرب الإسلام والمسلمين ، ومن مجموع تلك الوسائل والأساليب كان الغزو الفكرى للمسلمين وكانت التيارات العارمة التى تجتاح أمامها جموعا كبيرة من المسلمين الذاهلين عن الحق المخدوعين بالعرض عن الجوهر . وكانت لنا فى هذا البحث مواجهة مع هؤلاء الأعداء فى مخططاتهم وأحلامهم .

وعلى الله قصد السبيل

د . على عبد الحليم محمود

أضواء على مفهوم الغزو الفكري

تكاد تكون كلمة «الغزو الفكرى» من معطيات العصر الحديث الذى بُلى بأنواع عديدة من الغزو ، جاء بها الاستعمار مع ما جاء به لبلدان العالم الإسلامى بخاصة . والعالم النامى بعامة - من متاعب وأضرار .

وإذا كان للكلمة مدلول مجازى واضح فى اللغة فإن ذلك لايعفينا من أن نلقى عليها أضواء تكشف عن حقيقتها ومجازها إذ يدخل فى مفهومها تلك الأساليب العديدة الظاهرة حينا ، والمقنعة بالبهارج والتهاويل فى كثير من الأحيان .

واذا كان العالم المعاصر قد عرف الغزو العسكرى من دولة قوية لأخرى ضعيفة وعانت الدول الضعيفة الويلات من هذا الغزو وقدمت التضحيات من أبنائها وخيراتها ونافحت من أجل حاضر مغتصب سئ ، ومستقبل مهدد بما هو أسوأ . وإذا كانت البلدان الإسلامية - على وجه الخصوص - قد ذاقت مرارة غزو اقتصادى وتجرعت به كأس الحرمان والتجويع والإرهاب ، ودفعت راضية أو كارهة من خيراتها ومقدراتها ماهى فى مسيس الحاجة إليه ، ووجدت أنفسها عالة فى كل شئ على الدول التى سرقت خيراتها واغتصبت حقوقها . واضطرت مع كل ذلك أن تعايش هذه الدول الغاصبة معايشة التابع للمتبوع . والمتخلف للمتقدم . وتدفع فى سبيل ذلك أبهظ الأثمان ..

إذا كان العالم الإسلامى - بخاصة - والعالم النامى قد عرف ذلك وعاش متاعبه وآلامه . وبذل من الجهود والدماء ماتصور أنه به سوف يتخلص من هذه الأنواع من الغزو فإن الأعداء الماهرين الماكرين سريعا ما يغيرون خططهم

ويستبدلون بأساليبهم العتيقة أساليب جديدة ، وهذا هو ماحدث فى هذا العالم المعاصر التعيس ، فقد لجأ أعداء البلدان الإسلامية وأعداء الشعوب النامية إلى هذا الغزو الفكرى ، يكملون به أبعاد الصورة التى يرسمون لاستغلال الشعوب ، ويصلون به ما انقطع أو ماتصور أنه انقطع من وسائلهم فى احتكار خيرات الشعوب .

فما هو هذا الغزو الفكرى المكمل لأساليب الغزو التقليدية حينا ، والبديل عنها أو عن بعضها فى بعض الأحيان ؟

إن هذا الغزو الفكرى - فى كلمات - هو أن تظل الشعوب الضعيفة أو النامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها ، تلك القوى التى تتمثل فى عدد محدود من الدول الكبيرة التى تحمى بعضها بعضا ويتبادل ساستها الدفاع عن المصالح التى تهم أى طرف من أطرافها ، بغض النظر عما يبدو على السطح فى بعض الأحيان من خلافات ، إذ الحق أنها خلافات قشرية لاتتجاوز السطح بحال ، لما ثبت ذلك من خلال الواقع لكل من كان له قلب أو ألقى النظر إلى مايدور بين هذه الدول الكبيرة من وئام وخصام ، وليس بخاف على ذى بصر أو بصيرة ماتتمرس به هذه الدول الكبيرة من هيئات ومؤسسات دولية أو إقليمية تخفى بها وجهها الحقيقى الحاقد الطامع الكريه .

إن هذا الغزو الفكرى هو أن تظل بلدان العالم الإسلامى خصوصا والعالم النامى عموما تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة تبعية غير منظورة ، وفى هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدول المتبوعة وذكاؤها ، فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية والاستقلال بينما هى ترسف فى قيود الذل والتبعية ، إن ذلك مقتلة ذريعة لكل مايجب أن تفكر فيه الدول الضعيفة لتقوى ، وليس أضيع لمستقبل أمة من الأمم من أن تعجز عن أن تخطط لمستقبلها ومصيرها إلا وهى دائرة فى فلك دولة كبيرة واهمة ذاهلة عن حقيقة ما تعانيه من تبعية .

الغزو الفكري هو أن تتبنى أمة من الأمم – وبخاصة الأمة الإسلامية – معتقدات وأفكار لأمة أخرى من الأمم الكبيرة – وهى غير إسلامية دائما – دون نظر فاحص وتأمل دقيق لما يترتب على ذلك التبنى من ضياع لحاضر الأمة الإسلامية – فى أى قطر من أقطارها – وتبديد لمستقبلها ، فضلا عما فيه من صرفها عن منهجها وكتابها وسنة رسولها ، ومايترتب على هذا الصرف من ضياع أى ضياع . إذ لايوجد مذهب سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى يغنى الأمة الإسلامية عن منهجها الإلهى ، ونظامها الشامل المتكامل فى كل زمان ومكان .

الغزو الفكرى هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لدولة من هذه الدول الكبيرة ، فتطبقها على أبنائها وأجيالها ، فتشوه بذلك فكرهم وتمسخ عقولهم وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئا واحدا هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية أولا . ثم يلبس الأمر عليهم بعد ذلك فيحسبون أنهم بذلك على الصواب ، ثم يجادلون عما حسبوه صوابا ويدعون إليه . وهم بذلك يؤكدون تبعيتهم من جانب آخر . فيعيشون الحياة وليس لهم منها إلا حظ الأتباع والأذناب .

الغزو الفكرى هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم – وبخاصة الأمة الإسلامية – وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها ، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية وسير أعلامها وقادتها . فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس فى نفسه مثل إلا مايقرأ عنه فى تاريخ الدولة الغازية . وليس فى خلده أبطال إلا أبطالها ولا مفكرون إلا مفكروها ، بل يصبح وهو لايعرف من الحق والباطل إلا ما رأته هذه الأمة الغازية حقا أو باطلا . فتشوه بذلك رؤيته الحقة للناس والأشياء ويذهل عن تاريخه وسير الصالحين من أسلافه فيذهل عن حاضره ومستقبله ويضل عن معالم طريقه .

الغزو الفكرى هو أن تزاحم لغةُ الغالب لغةَ المغلوب فضلا عن أن تحل

محلها أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية والإقليمية . ومادام الإنسان لايفكر إلا باللغة - كما يجمع على ذلك العلماء - فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها . وإحلال لغة أمة محل لغة أمة هو إجبار للأمة المغلوبة على أن تفكر كما تفكر الأمة الغالبة وأن ترى من العادات والتقاليد مثل ماترى الأمة صاحبة اللغة الغازية . وما سكتت أمة غازية فى تاريخنا المعاصر عن لغة أمة مغزوة . وإنما تخطط لحربها بنفس الضراوة التى تخطط بها للاستيلاء على مقدراتها الاقتصادية . وليست الصورة الماثلة أمامنا فى كثير من بلدان العالم الإسلامى . وفى كثير من بلدان العالم النامى ببعيدة عن الأذهان .

الغزو الفكرى هو أن تسود الأمة المغزوة أخلاق الأمة الغازية وعاداتها وتقاليدها : وما دامت الأخلاق السائدة فى أمة من الأمم هى المعيار الدقيق الذى تقاس به هذه الأمة ، فإن هذه الأخلاق يجب أن تكون نابعة من القيم الأصلية التى تسود الأمة وتحكم سلوكها وتوجهه ، فإذا ما استوردت أمة من الأمم أخلاقها وقيمها من أمة أخرى مسخت بذلك شخصيتها وتنكرت لأصالتها وعاشت تابعة ذليلة للأمة التى قلدت أخلاقها وخسرت من مستقبل أجيالها ما يزيدها اقتراباً من أصالتها ووجدت نفسها أمام التبعية والضياع .

هذا ما أتصوره من أضواء يمكن أن تلقى على مفهوم الغزو الفكرى لتوضيح حقيقته ومجازه بصفة عامة . وليس هذا التصور هو التحليل الأخير . وإنما يمكن أن يضاف إليه كثير من التفصيلات والجزئيات التى نعرفها الآن وندرك آثارها . والتى يمكن أن تتفتق عنه عقول الغازين من وسائل أدهى وأخفى فى المستقبل القريب أو البعيد من تاريخ الصراع بين الأمم .

أما عندما يتعلق أمر الغزو الفكرى بالعالم الإسلامى والفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية فإن الكلام يحتاج منا إلى مزيد إيضاح ومزيد تركيز ، إذ الإسلام دين الله سبحانه الذى ارتضاه للبشرية كلها منهجاً وشريعة لحياتهم الدنيا ، ومعبراً وجسراً وزاداً لحياتهم الأخرى ، وهذا الدين كان وما يزال

بمبادئه ونظرياته ومثله وقيمه حرباً على كل انحراف بالبشرية عن الحق والميزان ، وأعداء الإسلام أعداء أصلاً للحق والميزان ، لأن الحق والميزان يحول بينهم وبين الاستغلال والعدوان ، لذلك فإن أصحاب المذاهب والنظريات المعادية للإسلام ما سكتوا عنه ولن يسكتوا وكيف بهم يسكتون وفى الإسلام ومبادئه حرب لهم ولما يمارسونه فى الناس من أعمال .

من أجل ذلك أصبح الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين يستهدف الجذور لا القشور ويحاول القضاء على الجوهر لا العرض ، ويركز على تشويه الأصول لا الفروع ، ومن هناتركز الغزو الفكرى ضد الإسلام فى حرب ضارية ضد أمرين خَطيرَيْن هما :

القرآن الكريم أصل الشريعة وما شرحه وفصّله من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العالم الإسلامى كله .

واللغة العربية لغة القرآن والإسلام ، فى العالم العربى بالدرجة الأولى ، وفى كل مكان يمكن أن يعنى باللغة العربية بعد ذلك .

وكل عمل وكل خطة يقوم بها أعداء الإسلام والمسلمين فى الفكر أو الثقافة أو المبدأ والمذهب أو العادات والتقاليد ، أو الأدب والفن ، أو الزى والشكل ، إنما يعد معركة جانبية فرعية تخدم المعركة الكبرى معركة حرب أصل الإسلام وجذره وهو القرآن الكريم وحرب لغة القرآن اللغة العربية ، وما أكثر المعارك الجانبية وما أخبث خططها ، إذ تتناول مظاهر حياة المسلمين كلها ابتداء من تغيير الزى وتغيير العادة إلى تغيير الخلق والسلوك ، وانتهاء بتغيير المنهج والشريعة ، ومروراً بإفساد اللغة وإقصائها عن ألسنة المسلمين ، أى إقصاء القرآن عن ألسنتهم وقلوبهم وحياتهم .

هذا مفهوم الغزو الفكرى ، وتلك هى تياراته المعادية للإسلام فيما أرى ، وسوف أتناول فى ثنايا هذا البحث مظاهر هذا الغزو وتياراته ، من

حملات التشويه الموجهة ضد القرآن الكريم والسنة النبوية وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضد التاريخ الإسلامى كله ، وضد نظام الحياة الإسلامى ، وضد التراث الإسلامى بعامة ، وضد اللغة العربية لغة القرآن الكريم .

ثم أعطف على ذلك حديثاً عن ركائز هذا الغزو الفكرى وتلك التيارات من صهيونية وتبشير واستعمار ونظريات ومذاهب معادية كالديموقراطية والشيوعية والاشتراكية وإحياء القوميات ، ومن فلسفات هدامة مثل الوجودية والفوضوية والعرى والتخنث والترجل ، وما لذلك كله من وسائل وأساليب .

وسوف أقدم على ما أقول من الأدلة والبراهين والشواهد ما يدعم صحة ما أقول . والله المستعان وهو الهادى إلى سواء السبيل .

الأبعاد التاريخية للغزو الفكرى ضد الإسلام

سوف لا نذهب بعيداً فى الحديث عن هذه الأبعاد التاريخية للغزو الفكرى وتياراته المعادية للإسلام ، على الرغم من أننا مقتنعون بأن هذا الغزو الفكرى المضاد للإسلام بعيد الأغوار . مواكب لظهور الإسلام ، وذلك أن المقصود من هذا الغزو فى عصرنا الحديث يحول بيننا وبين التعمق فى تلك الأغوار ، طمعاً فى أن نجلى صورته بهذا المفهوم الحديث الذى تحدثنا عنه آنفاً ، لكى تتجنب الأمة الإسلامية شره وخطره ، ويحسبنا فى تصور أبعاد هذه العداوات الموجهة للإسلام أن نقرأ ما كتبه «درمنجهم» حيث قال : «أن الهوة التى احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن فى الحقيقة بين الإسلام والنصرانية وإنما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم ، فأهل الكتاب كانوا بادئ ذى بدء أنصاراً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ثم لم يفتأوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هزئوا به ، كما أن المسلمين هم أيضاً من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية وأن مفسرى القرآن بدلاً من أن يظهروا ما بين الديانتين من الموافقات اجتهدوا فى إثبات ما بينهما من المفارقات ، فالقرآن أقرب كثيراً إلى النصرانية من السنة المروية ، وعلى كل حال : الأحاديث المنسوبة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) هى التى حفرت هذه الهوة بين الديانتين وفى هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ما هو معلوم (هكذا زعم درمنجهم) .

ثم واصل «درمنجهم» حديثه فقال : «ولما نشبت الحروب عدة قرون

متطاولة بين المسلمين والمسيحيين ازدادا بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيراً ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من جهة المسيحيين ، فقد كان البيزنطيون يحتقرون الإسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ما عدا يوحنّا الدمشقي لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الإسلام وإنما حملوا عليه بالطعن والقذف بلا فحص ، وأخذوا يصورون محمداً (صلى الله عليه وسلم) بصور غريبة جداً ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم (وذكر درمنجهم المطاعن التي كانوا يوجهونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم مما أبينا نقله نظراً لسخفه وسفاهته وسقوطه من نفسه حتى إن درمنجهم نفسه هزأ كثيراً بهذه المطاعن بالرغم من كونه مسيحياً معتقداً)[1] فالتناقض الذى بين الملّتين كانت قواعده الأساسية أخباراً واهية مثل أن محمداً كان صنماً من ذهب ، وأن مساجد المسلمين هى هياكل ملأى بالتماثيل ، وقد ورد فى أغنية اسمها «أغنية انطاكية» ما يفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى فى تلك الهياكل محمداً بشكل صنم من ذهب وفضة راكباً على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من الفسيفساء ، ثم إن الأغنية المسماة بأغنية «رولان» والتى تمثل فرسان شرلمان وهم يحطمون أصنام المسلمين فيها أن المسلمين يعبدون ثالوثاً مؤلفاً من : ترفاجانت ومحمد وأبولون (كل شيء خطر فى البال إلا نسبة عبادة الثالوث إلى المسلمين)[1] .

ثم إن قصصاً يسمى قصص محمد (Roman du Mohamet) ورد فيه ما يفيد أن الإسلام يجيز اشتراك جملة رجال فى زوجة واحدة !

ولقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيراً منذ أيام «رودلف دولودهيم» إلى أيامنا هذه أيام «نيقولا دوكوز» و «مراشي» و «هوتنجر» و «بيلندر» و «بريدو» فقد مثل هؤلاء محمداً – صلى الله عليه وسلم – كرجل كاذب ، والإسلام كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن

---

(١) مابين القوسين من كلام شكيب أرسلان .

ككتاب منسوخ من أوله إلى آخره مليء بالمحالات ، وكانوا بزعمهم لا يجدون حاجة إلى الأخذ والرد فى هزء كهذا .

ثم إن «بيير لوفنيرابل» مؤلف أول كتاب فى أوربا ضد الإسلام ترجم مع ذلك فى القرن الثانى عشر (الميلادى) القرآن إلى اللاتينية ، ثم فى القرن الرابع عشر ظهر «بيير باسكال» فَعَلِم عن الإسلام أكثر من غيره .

ثم إن البابا «اينوشانيوس الثالث» قال عن محمد إنه المسيح الدجال .

ولكن فى القرون الوسطى بدأوا ينظرون إليه كرجل مبتدع ممن يقال لهم الهراطقة .

ثم ظهر «ريموند لول» فى القرن الرابع عشر ، و «غليوم بوستل» فى القرن السادس عشر ، و «رولان» و «غانييه» فى القرن الثامن عشر ، والأب «لابروجلى» و «رنان» فى القرن التاسع عشر ، وكانت أحكامهم فى هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة .

أما «فولتير» فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد وبناها على غير تحقيق ، ثم عاد فصحح قسماً كثيراً مما وهن فيه .

وقد ارتكب «مونتسكيو» بعد «باسكال» و «مالبرانش» أغلاطاً كثيرة فيما يتعلق بالإسلام نفسه ، إلا أنه كانت له آراء سديدة وأحياناً عادية فيما يتعلق بعادات المسلمين .

ثم ظهر الكونت «دوبالانفيلييه» و «شول» و «كوسين دوبرسفال» و «دوزى» و «سيرنجر» و «بارتلمى سانتيلير» و «دوكاسترى» و «كارليل» وهؤلاء كانوا على وجه الإجمال موافقين للإسلام ولنبى الإسلام ، وربما أثنوا عليهما .

غير أن «دروتى» فى سنة ١٨٧٦ م و «فوستر» سنة ١٨٢٢ م قد أفحشا

فى الطعن فى الإسلام وفى محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يزال للإسلام إلى يومنا هذا أعداء شديدو العصبية.[1]

وبحسبنا هذا التصوير للعداء المقيت الذى وجهه أبناء الغرب للإسلام والمسلمين وهو تصوير صادر من كاتب غير مسلم، وهو دالٌ على الأبعاد التاريخية للعداء الذى يضمره المسيحيون أو الصليبيون للإسلام، حسبنا هذا حتى لا نخرج عن سمت الموضوع وحدوده الزمانية الضاربة فى القدم نسبياً، ولنتحدث عنْ هذا الغزو الفكرى فى حدود العصر الحديث أو الفترة التى يفصلنا عنها قرنان من الزمان أو قرن ونصف على وجه التقريب، فتلك هى الفترة التى زادت فيها قوة أعداء الإسلام واتسع نفوذهم، وتعمق فيها تحالفهم من شرق وغرب، ليواجه هذا الدين بضربات عنيفة، وهى نفس الفترة - على وجه التقريب - التى غير فيها أعداء الإسلام أساليبهم فى حرب المسلمين وغيروا وبدلوا من خططهم، وألبسوا غزوهم من الأقنعة ما أخفى معالمه على كثير من المسلمين.

ولننظر فى مواجهة أعداء الإسلام للدول والبلدان الإسلامية التى كانت تعيش فى ظل الخلافة العثمانية فى تلك الفترة التى نتحدث عنها.

فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة ١٨٥٧ م استطاعت انجلترا أن تستولى على الدولة الإسلامية فى الهند استيلاء سياسياً، وانتقلت منذ ذلك التاريخ سلطات الحكم فى الهند الإسلامية إلى التاج البريطانى. وبذلك زالت من الوجود إحدى الدول الإسلامية الكبرى التى قامت فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى فى آسيا الوسطى.

ولم يبق من العالم الإسلامى فى آسيا آنذاك ألا الدولة الصفوية فى إيران.

---

(١) لوثروب ستوداردـ حاضر العالم الاسلامى تعريب عجاج نويهض تعليق المرحوم الأمير شكيب أرسلان. ٨٣/١ ـ ٨٥.

والدولة التركية العثمانية فى آسيا الصغرى وشرقى أوربا ، وسوف نتحدث عن ذلك بعد قليل .

وفى نفس العام - ولم يكن ذلك مصادفة على أى حال - ١٨٥٧ م استولى الفرنسيون على الجزائر كلها إلى الصحراء بعد أن كانوا قد بدأوا فى غزوها سنة ١٨٣٠ م .

أما الدولة العثمانية فإن الحديث عنها ذو شجون ، وبحسبنا منه أن نشير إشارات عابرة نستجلى فيها تاريخ دولة مسلمة شامخة ، ثم نتحدث عن موقف أوربا كلها من هذه الدولة .

إن هذه الدولة العثمانية التى عبرت أوربا سنة ١٣٥٣ م واتخذت بعد ذلك بقليل أدرنة حاضرة أوروبية لها ، ثم امتد نفوذها وسلطانها من بحر إيجه إلى نهر الطونة مستولية على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية وتساليا وتراقيا ... ثم إلى الإدرياتيك . ثم القسطنطينية وألبانيا والبوسنة والصرب وبلاد المجر وإقريطش وغيرها ، وقد تم كل ذلك فى ثلاثة قرون أو يزيد ، حيث وقفت جيوش تلك الدولة على أبواب فينا سنة ١٦٨٣ م .

ولن ينسى التاريخ لمحمد الثانى أنه حمى الكنيسة الإغريقية وحرم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً . وأعطى للبطريرك والأساقفة من الحصانات ونفوذ الكلمة ما يعد بحق صورة نابضة من صور تسامح الإسلام مع أهل الكتاب ، وكذلك عومل الأساقفة نفس المعاملة الحسنة فى كل الولايات التى تخضع للدولة العثمانية .

وليس أدل على تسامح الدولة العثمانية مع المسيحيين من كلمات «ريتشارد ستبر» وهو تاجر إنجليزى كان فى تركيا سنة ١٥٧٨ م حيث قارن بين المسلمين الأتراك وبين المسيحيين فى معاملة المسيحيين أنفسهم فقال : «... وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب بسيرهم فى أعمال الظلام ... سمحوا للمسيحيين جميعاً ، للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا

محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا ، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية ، وفى أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق - بدليل اثنى عشر عاماً قضيتها فى إسبانيا ، أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب : بل إننا فى خطر على حياتنا وسلعنا »[1] .

كذلك صاح مقاريوس بطريق أنطاكية يثنى على تسامح الأتراك المسلمين ووحشية البولنديين فى معاملة المسيحيين فقال : « أدام الله بقاء دولة الأتراك خالدة إلى الأبد ، فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهود أو سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاعين ، فلم يكتفوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح ، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ولا بأن يتركوا لهم قساً يعرفون أسرار دينهم »[2] .

وهذا هو « أبروتس فوليشا » أحد أشراف جنوة يقول : « ... وطالما تساءلت : وكيف يحدث أن عدداً كبيراً جداً من رجالنا يأوى إليهم - يقصد الأتراك - باستمرار ويتنكر للديانة المسيحية وينضوى تحت لواء الشريعة الإسلامية »[3] .

على أن الفرية التى تقول بأن المسيحيين اتجهوا إلى الإسلام هروباً من الجزية التركية ، فرية لا تستند إلى أى أساس صحيح ، لأن هذه الجزية أو

---

(١) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . على التوالى هامش ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٣ ، ١٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

الضريبة لم تكن تجاوز دوكة واحدة عن كل رأس أى مايساوى مايتراوح بين ٢.٥ قرشين ونصف قرش ، و ١٠ عشرة قروش عن كل ذكر بالغ ، كل حسب دخله . ولما زادت هذه الجزية زيادة ملحوظة فى القرن التاسع عشر كانت تتراوح بين ١٥ خمسة عشر ، و ٣٠ ثلاثين ، و ٦٠ ستين قرشاً ، كل على حسب دخله كذلك ، هكذا اعترف الكُتّاب المسيحيون بعامة والمؤرخون منهم على وجه الخصوص . وما يعقل أن واحداً من الناس يترك دينه – مهما كان ذلك الدين – من أجل مبلغ سنوى زهيد إلى هذا الحد !

على أننا هنا لا ندعى أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية مبرأة من العيوب ، أو كانت ملتزمة بحدود الشريعة الإسلامية ونظمها فى كل أمرها . إذ المعروف لدى كل منصف من الباحثين المسلمين أن لتلك الدولة مخالفات كثيرة لشريعة الإسلام ، وأن أبرز هذه المخالفات كان يتمثل فى ضريبة الأبناء – وهى أخذ الأبناء من آبائهم المسيحيين فى سن مبكرة لينتظموا فى الجيش التركى قسراً – على أن هذه المخالفة لشرع الله لم تكن عامة أو مفروضة على كل مسيحى . وإنما كان يكتفى من كل مدينة بأن يتبرع أهلها بولدين أو ثلاثة أو أربعة فى كل سبع سنوات»[1] .

قرر ذلك «متروفانس كريتوبولوس» فيما كتبه عن ذلك سنة ١٦٢٥ م .

وهذه الضريبة على قلتها وتباعد الفترة الزمنية التى تجبى فيها ، ليست جائزة فى شريعة الإسلام لأكثر من سبب ، لمخالفتها لأكثر من نص ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن السبب فى إقبال كثير من المسيحيين على الدخول فى الإسلام – كما يزعم الزاعمون .

ولم تستطع أوروبا وروسيا القيصرية مجتمعين ومتفرقين أن يسكتوا على تلك المكانة التى احتلتها تركيا المسلمة فى نفوس المسيحيين ، فأخذت تكيد وتدبر وتحيك المؤامرات والدسائس ، كانت الحروب والصراعات بين تركيا وبين

---

(١) المرجع السابق

هؤلاء ، وبدأت الأنظمة الداخلية للدولة العثمانية التركية تبوء شيئاً وراء شيء ، حتى تباعدت كثيراً عن الإسلام وروحه ومنهجه ونظامه وعند ذلك أصبحت تلقب عند أعدائها بدولة الرجل المريض الذى يوشك أن يفنى ، فما إن بدأت حرب استقلال اليونان عن تركيا حتى تحالفت روسيا وانجلترا وفرنسا والنمسا ضدها ، وما ان استطاعت قوات مصر بقيادة إبراهيم بن محمد على أن تقف بجوار تركيا وأن تحقق لها بعض الانتصارات على أعدائها فى اليونان ، حتى تحالفت كل القوى الأوروبية والروسية من أجل تحقيق هدفين :

الأول : هو القضاء على الأسطول المصرى فى معركة نفارين البحرية ، حيث واجهته أساطيل روسيا وانجلترا وفرنسا وحققت عليه انتصاراً كبيراً .

والثانى : عقد اتفاق منفرد مع محمد على ليتخلى عن معاضدة تركيا أو الوقوف معها فى حرب .

وقد نجحت هذه الدول المتحالفة ضد تركيا فى الوصول إلى تحقيق هدفيها معاً ، بغض النظر عما بدأ بين هذه الدول المتحالفة (انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا) من خلافات هى فى الحق قشرية سطحية ، أشبه ما تكون باختلاف اللصوص على تقسيم المال المسروق .

وما ان بدأ عهد السلطان عبد العزيز حتى انتشر النفوذ الغربى فى تركيا ، وانتشر الغزو الفكرى الأوروبى لبلاد المسلمين وجَدَّت المحاولات المستميتة من الأعداء للقضاء على مظاهر الحضارة الإسلامية ، وتمخض ذلك عن قيام حزب تركيا الفتاة بتحريض من عدد من الأجانب الأعداء الألداء لكل ما هو إسلامى ، متحالفة هذه الجماعة مع المحافل الماسونية الدولية ، وليس لكل هؤلاء من هدف إلا أن تصبح تركيا وقد تنكرت للإسلام مبادئه ونظمه ، وقد نجح هذا التحالف فى الوصول إلى هدفه كذلك .

وما إن قامت الحرب العالمية الأولى حتى بدت النوايا وأخذت فى الوضوح حين أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، ثم - وعلى وجه من السرعة ملحوظ - أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب على تركيا كذلك .

وعند النظر فى اتفاقية ٢٦ من إبريل سنة ١٩١٦ م بين انجلترا وفرنسا وروسيا نجدها تصرح بما كان مضمراً وتسفر عما كان خبيئاً ، فهى تنص على أن يكون لإنجلترا فى الدول العربية المستقلة المزمع قيامها منطقة نفوذ فى : العراق وسوريا ومیناءى حيفا وعكا - وكانت انجلترا قد احتلت قبل ذلك مصر - ، وتنص الاتفاقية على أن يكون لفرنسا نفوذ فى الشريط الساحلى من سوريا ، وولاية أطنة وقليقلية وجنوب كردستان بما فى ذلك مدينة خربوط - وكانت فرنسا قد احتلت من قبل تونس إلى جانب احتلالها السابق للجزائر - ونصت الاتفاقية على إعطاء روسيا بلاد أرمينيا وجزءاً من بلاد كردستان ، وشمالى الأناضول وغربى طرابيزون إلى نقطة تحدد فيما بعد .

ويبدو أن الحلفاء لم يستطيعوا أن يتفقوا على شىء فى أمر فلسطين يخضعها لإحدى الدول المتحالفة - لأن الخطة كانت موضوعة لتمكين اليهود من فلسطين - فاتفقوا على أن تكون فلسطين تحت إدارة دولية ، وهكذا تبددت أجزاء الدولة التركية المسلمة .

وعند نظرة أخرى إلى اتفاقية «سايكس - بيكو» بين انجلترا وفرنسا ، نجد أنها تنص على أن تكون الأراضى المشار إليها مناطق تحت إدارة كل من انجلترا وفرنسا وسائر البلاد العربية ، فهى مناطق نفوذ إنجليزية أو فرنسية سواء أتم تنظيمها فى دول عربية أو اتحاد من الدول العربية ، وهذا هو التمزيق للعالم الإسلامى والاحتلال العسكرى المسلح لمعظم أجزائه ، ومع هذا الغزو العسكرى أو بعده بدأت عمليات الغزو الفكرى وآتت ثمارها لدى أصحابها . فسخت الفكر الإسلامى وشوهت الحضارة الإسلامية وهزت كيان الشخصية المسلمة .

وكان من ثمار هذا الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين أن قام بعض مفكرى المسلمين باستحداث حركات سموها حركات تقدمية فى الإسلام ، فأدخلوا بها على الإسلام ما ليس منه ، وأخرجوا منه ما هو من صميمه ، وزعموا أن هذا الخلط هو الإصلاحات الإسلامية التى يجب أن يقوم بها المسلمون ليعيشوا عيشة متحضرة تتلاءم وتواكب الحضارة الأوروبية التى أصبحت فى نظرهم مثلاً يحتذى ، رأينا ذلك رأى العين فيما نادى به الزعيم الهندى – المسلم – «السير سيد أحمد خان» وفيما تفرع عن أفكاره ودعواته التجديدية من استحداث مذهبين جديدين فى المسلمين هما : المذهب القاديانى والمذهب الأحمدى . وهما فى الحق ليسا من الإسلام فى شىء .

هذا أثر الغزو الفكرى المعادى للإسلام فى المسلمين أنفسهم وبخاصة فى المفكرين والقادة منهم وتلك تياراته .

وأما ثمرة هذا الغزو الفكرى فى غير المسلمين من تلك الجيوش المنظمة الجرارة من المبشرين والمستشرقين والصليبيين والصهيونيين فإنها بدت فى إذكاء نار الخلافات المذهبية بين المسلمين والتشجيع على توسيع الهوى بين المختلفين ، وإعادة نيران الفتن بعد أن خبت بمرور الزمن . وذلك عن طريق ما قام به المبشرون والمستشرقون من دراسات وبحوث ، وما سجلوه فى دوائر المعارف المنسوبة إليهم والمتخصصة فى الإسلام والمسلمين . وعن طريق ما قاموا بعقده من مؤتمرات أكدوا فيها مقررات غاية فى الخطورة . وعن طريق ثالث هو : تعمدهم تشويه الفكر الإسلامى وتهجمهم على الإسلام والقرآن والسنة النبوية وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم . وتشويههم للحضارة الإسلامية وللتاريخ الإسلامى وللتراث الإسلامى كله .

وعن طريق رابع هو إشاعة النظم السياسية والنظم الاجتماعية والاقتصادية الغربية بين الشعوب الإسلامية بقصد القضاء على النظم الإسلامية للسياسة والاجتماع والاقتصاد . لينعزل المسلمون عن دينهم منهجاً وحركة ونظاماً .

وعن طريق إعلاء شأن الحضارة الأوروبية وربط التمسك بها والمتمسكين بها بعجلة التقدم والتحضر والمدنية وما يترتب على ذلك من نفور بعض المسلمين من حضارتهم ودينهم وقيمهم الإسلامية كلها .

وبعد : فتلك هى الأبعاد التاريخية للغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام فى صورتها المصغرة التى لا أقصد منها الاستيعاب ولا التوسع ، وانما القصد منها هو أن تكون مدخلاً للبحث وباباً إليه .

الباب الأول

مظاهر الغزو الفكري وتياراته

وفيه فصلان

الفصل الأول:

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام

الفصل الثاني:

حملات التغريب الموجهة ضد الإسلام

الباب الأول

مظاهر الغزو الفكري وتياراته

اتخذ الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين فى العصر الحديث مظاهر عديدة ، واتجهت تياراته فى مجارى عمقها صانعوها وزادوا فى طولها وعرضها حتى طافت بالعالم الإسلامى كله ، حاملة إليه السم فى العسل ، أو الموت فيما يزعمون أنه الدواء .

ونستطيع أن نتعرف على تلك المظاهر للغزو الفكرى وتياراته فى حملات التشويه للإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم المعصوم ، وحملات التشويه للتاريخ الإسلامى ونظام الحياة الإسلامى وللتراث الإسلامى كله .

كما نستطيع أن ندرك مظاهر هذا الغزو فى حملات التغريب للحضارة الإسلامية وللمسلمين أنفسهم ، كتغريب التعليم والثقافة والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتغريب الأخلاق والآداب ، ثم تكون قمة التغريب بتغريب اللسان لقطعه عن لغة القرآن اللغة العربية الفصحى .

ولقد قامت على نشر هذا الغزو الفكرى وترويجه مؤسسات عديدة ومراكز خطيرة منها : الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات المعادية للإسلام مثل الديموقراطية والشيوعية والاشتراكية والقوميات .

ومنها : الفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية واتخاذ العرى مذهباً ، واتخاذ التخنث للرجال والترجل للنساء أسلوباً فى الحياة .

ومنها : وسائل التخريب التى توجهها الصهيونية فى الغالب لهدم القيم الخلقية كالسينما والمسرح والملاهى والنوادى والجمعيات الهدامة كالماسونية و «أندية الروتارى» وغيرها .

وهذه كلها ركائز للغزو الفكرى ، ونقط انطلاق تتحرك منها الحملات وتنطلق لتغزو ، ثم تعود بكل خبيث هدام من وسائل حرب الإسلام والمسلمين .

ولنبدأ حديثنا عن حملات التشويه للإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولشخصه الكريم ولتاريخه ونظامه وتراثه .

الفصل الأول

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام

وتشمل:

1. محاولة تشويه القرآن الكريم
2. محاولة تشويه السنة النبوية
3. محاولة تشويه شخص الرسول (صلى الله عليه وسلم)
4. محاولة تشويه التاريخ الإسلامي
5. محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية
6. محاولة تشويه التراث الإسلامي

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام

تناولت هذه الحملات أصل الإسلام وهو القرآن الكريم والتفسير الصحيح لهذا الأصل وهو السنة الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجهت هذه الحملات سمومها إلى الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى على النحو الذى سنفصله فى الصفحات التالية من هذا البحث .

وهذا التشويه يستهدف أهدافاً خبيثة ، لا تخفى على من يتأمل خطط الأعداء ويوليها شيئاً من الاهتمام ، فمن بين ما تستهدفه هذه الحملات التشويهية أن تهتز ثقة المسلمين فى دينهم لما يدخل الأعداء من تشويه على أصله الأصيل كتاب الله سبحانه القرآن الكريم ، وعلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، التى تكفلت بشرح هذا الأصل وتفسيره ، فإذا ما اهتزت ثقة المسلمين فى دينهم أصبح الواحد منهم يعانى من فراغ رهيب فى نفسه وعقله وعاطفته وغدا النظام الإسلامى فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد عنده لا يقنع ولا يحقق لهشيئاً من مطالبه ، وعندئذ تتلقاه دعايات هؤلاء الأعداء لحضارتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيصبح فريسة لها وما هو إلا أن يرتمى فى شباكها فيضيع اعتزازه بدينه ويصبح تابعاً خاضعاً لعدوه .

ومن بين أهداف الحملات التشويهية تلك . أن يقيم هؤلاء الأعداء الحواجز بين الإسلام وبين الجموع البشرية المقبلة عليه من الوثنيين فى آسيا وأفريقية بل من الذين أدخلوا فى المسيحية قسراً أو عن طريق المؤسسات التبشيرية المنبثة فى آسيا وأفريقية ، إذ ليس هناك ما يحول بين هذه الجموع وبين الإسلام إلا أن تشوه صورة الإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتاريخه وتراثه أمام الناس .

إلى غير ذلك من أهداف يستهدفونها من وراء حملات التشويه تلك .

محاولة تشويه القرآن الكريم

ليست محاولات تشويه القرآن الكريم حديثة أو معاصرة . وإنما هى ممتدة فى التاريخ الإسلامى مواكبة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حمل لواءها أعداء الإسلام من يهود ، ومن الوثنيين والنصارى أجيالاً بعد أجيال إلى يومنا هذا .

وليس من هدفنا هنا أن نتتبع حملات التشويه للقرآن الكريم عبر كل هذا التاريخ ، وإنما نحاول أن نتحدث عنها فى الإطار الزمنى الذى حددناه لهذا البحث وهو قرنان أو قرن ونصف قرن من الزمان .

من أخطر من عبثوا بالقرآن الكريم وتعمدوا تشويهه كُتّاب «دائرة المعارف الإسلامية» وبخاصة من كتب منهم فى التعريف بكلمة «الله» سبحانه وتعالى .
وهو المستشرق الحاقد الخطر «ماكدونالد» D. B. Macdonald
حيث أساء هذا المستشرق وأخطأ وتخبط وأضر بنفسه وبالحقيقة العلمية أكثر مما أضر بالإسلام أو بالقرآن الكريم أو بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن القارئ لمقاله ذاك فى «دائرة المعارف الإسلامية» ٢٤٤/٤ ط دار الشعب بالقاهرة ، يستطيع أن يرى ما تخبط فيه الكاتب ، وما قال فيه من غير علم أو تعقل : فلا هو عارف بتاريخ العقائد عند الجاهليين ، ولا هو فاهم أصول التعبير العربى الصحيح . ولا هو مدرك أنه بذلك الخطأ والتخبط يفضح نفسه عند كل قارئ وعند كل منصف ، ويكشف عن تعصبه الذى أعماه عن الحق .

ولقد تجرد للرد عليه فى هذه المزاعم والأباطيل مستشرق آخر هو «كارديه» : L. Gardet . فرده عن بعض الخطأ ، فبدا «كارديه»

أكثر تعقلاً وحكمة . غير أن ما رد به «كارديه» فيه خلل كبير ، وكان ينقصه التحري والدقة وإن أعجب بعضَ النقاد والمعلقين .

ولنضرب الآن مثلاً واحداً على تخبط «ماكدونالد» في حديثه عن القرآن الكريم وهو يتحدث عن عقيدة الجاهليين في الله سبحانه ، وذلك أن «ماكدونالد» يتهم القرآن – وذاك هو بيت القصيد – بأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس من عند الله ، وتلك هي الطعنة التي يوجهونها للقرآن ويلحون في إثباتها يقول «ماكدونالد» في حديثه ذاك : «... كما أنه من المحقق أن أهل مكة جعلوا بينه وبين الجنة نسباً ... وجعلوهم شركاء لله .. وقدموا لهم القرابين وكانوا يعوذون بهم . ولسنا نعلم علم اليقين : هل كانت قد وجدت لديهم فكرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله ، وربما كان هذا تفسيراً من عند محمد ...»[1] .

والذي يعنينا من هذه العبارة ادعاؤه أن القرآن الكريم تفسير من عند محمد ﷺ . والعجيب أنه بينما يدعي هذه الدعوة الباطلة نجده يعتمد في كلامه أحيانا على آيات قرآنية .

ثم يلح في موضع آخر على أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ وأنه يزيد فيه أو ينقص منه حسب ضرورات السجع في الكلام فيقول : «وقد عرّف محمد الله بأنه الملك المنتقم الغيور . وأنه سيحاسب الناس من غير شك ويعاقبهم في اليوم الآخر . وبذا تحولت تلك الفكرة الغامضة عن الله الى ذات لها خطر عظيم . وينبغي لنا أن نتبسط في الكلام على هذه الذات كما تصورها محمد ﷺ . ومن حسن التوفيق أن لوازم السجع حملته على وصف الله بعدة صفات يتردد ذكرها كثيرا في القرآن .. وتبين شغف محمد ﷺ بهذه الصفات وشدة تمسكه بها . وكانت الفطرة السليمة هي التي دفعت المسلمين بعد محمد ﷺ الى جمع هذه الصفات وتقديسها ، وهذه الصفات تعبر

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤/ ٢٤٥ ط دار الشعب القاهرة .

عن حقيقة اله محمد ﷺ أحسن مما تعبر عنها الصفات التى ذكرها علماء الكلام فى القرون الوسطى ، وهى تعيننا كثيرا فى فهم وتحديد عبارات محمد ﷺ المبعثرة المتناقضة »[1] ثم يعاود «ماكدونالد» محاولاته فى تأكيد وهمه بأن القرآن الكريم ليس من عند الله فيوهم قارئه بأن هذا القرآن من صنع محمد ﷺ وأنه كان من السهل عليه أن يزيد أو ينقص منه ، فيقول «وكان شعراء العرب من قبل قد أظهروا مقدرة فائقة فى استعمال الصفات ولكن صفة «الواجد» لم يرد ذكرها فى القرآن ، ولو أنه كان من السهل أن ترد فيه »[2]

ثم يلح على الصاق تهمة صنع القرآن بمحمد ﷺ ، فيزداد تخبطا حيث يقول «... ومن أسمائه – يعنى الله سبحانه – السلام ، وهذه الصفة لم ترد الا فى الآية ٢٣ من سورة الحشر ومعناها شديد الغموض ، ونكاد نقطع بأنها لا تعنى السلم ويرى المفسرون أن معناها السلامة أى البراءة من النقائص والعيوب وهو تفسير محتمل وقد تكون هذه الصفة كلمة بقيت فى ذاكرة محمد من العبارات التى تتلى فى صلوات النصارى »[3]

ولست أدرى بماذا أرد على باطل «ماكدونالد» ومزاعمه ؟ وليس فيما زعمه شىء يستند إلى دليل أوهى دليل ، وبحسبه أن يفند مزاعمه مستشرق آخر هو «كارديه»

ولو ذهبت أستقصى المستشرقين فى تشويه القرآن الكريم لما وسعتنى مئات الصفحات ولكنى سوف أكتفى من هذا العدد العديد بمستشرقين آخرين هما المستشرق «جب» والمستشرق «هـ ج ليوبلز»

فالمستشرق «جب» يتحدث عن محمد صلى الله عليه وسلم وعن تأليفه للقرآن الكريم فيقول «إن محمداً ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات

---

(١) السابق ٤/ ٢٤٦ ٢٤٧ (٢) السابق ٢٤٧/٤ (٣) السابق ٤/ ٢٤٨

الظروف الخارجية عنه المحيطة به من جهة ، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقا جديدا بين الأفكار والعقائد السائدة فى زمانه والدائرة فى المكان الذى نشأ فيه .

ثم يواصل «جب» حديثه عن محمد والقرآن فيقول : «إن مكة كانت فيها حياة زاخرة بالتجارة والسياسة والدين ، وأنه وجدت فيها زعامة وزعماء ، وأنه وجد ظلم اجتماعي بين سكانها ، وأن الرسول محمداً انطبعت فى نفسه كل هذه الجوانب ، وكان على وعى تام بها ، وترى آثارها فى حياته وفى قرآنه وفى كفاحه إلى أن مات»[1] .

وافتراءات «جب» واضحة البطلان بينة البهتان ، تفقد المنطق وتجانب الصواب .

ثم يواصل «جب» افتراءاته فيقول : «ومحمد فى البداية لم يكن نفسه على علم بأنه صاحب دعوة إلى دين جديد ، بل كانت معارضة المكيين له ، وخصومتهم له من مرحلة إلى أخرى ، هى التى قادته أخيراً وهو بالمدينة بعد أن هاجر إليها ، إلى إعلان الإسلام كجماعة دينية جديدة بإيمانها الخاص ، بمنشآتها الخاصة .

ويبدو أن معارضة المكيين له لم تكن محافظتهم وتمسكهم بالقديم أو بسبب عدم رغبتهم فى الإيمان ، بل ترجع أكثر ما ترجع إلى أسباب سياسية واقتصادية ؛ لقد تملكهم الخوف من آثار دعوته التى تؤثر على ازدهارهم الاقتصادى وبالأخص تلك الآثار التى يجوز أن تلحق ضرراً بالقيمة الاقتصادية لمقدساتهم .

وبالإضافة إلى ذلك فإن المكيين قد تصوروا – أسرع مما تصور محمد نفسه – أن قبولهم لتعاليمه ربما يمهد لنوع معقد من السلطة السياسية داخل جماعتهم التى كانت تحكمها فئة قليلة حتى ذلك الوقت»[2]

---

(١) جب : المذهب المحمدى : ٢٥ وما بعدها . (٢) السابق : ٣٨ .

وخلاصة ما يرى «جب» أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها ، وشق طريقه بين الأفكار والعقائد الشائعة في بيئته ، فالقرآن كما يرى «جب» من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ومن ملاءمات هذه البيئة التي عاش فيها .

ومن سَقَط ما قاله «جب» أن أهل مكة عارضوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، لا لمخالفة عقائدهم ووثنيتهم وزيغهم وصدودهم ، وانما المعارضة قامت عنده ونمت ووصلت إلى الحد الذي وصلت إليه بسبب التنافس على الزعامة وعلى المصالح الاقتصادية والسياسية .

وقة الباطل عنده ادعاؤه بأن القرآن الكريم كان أثراً من آثار إحساس الرسول صلى الله عليه وسلم بالظلم الاجتماعي الذي ساد أهل مكة ، وأن أثر هذا الإحساس وهو القرآن الكريم بدا واضحاً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي كفاحه إلى أن مات .

وأما المستشرق : هـ . ج . ويلز ، فإنه يردد نفس التهم التي تستهدف تشويه القرآن الكريم وتشويه الإسلام نفسه بذلك ، فهو يردد أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذي صنع القرآن الكريم . ونحن ننقل عن : ويلز من كتابه الذائع الصيت : «معالم تاريخ الإنسانية» الذي ترجم إلى العربية وطوّف آفاق العالم الإسلامي ، وحظي بالرضى والقبول من الدارسين .

يقول «هـ . ج . ويلز» عن الرسول ﷺ : «وحدث في مكة قرابة سنة ٥٧٠ ميلادية أن ولد محمد ﷺ مؤسس الإسلام ، وولد له أطفال عديدون كان اسم أحدهم «عبد مناف» أي خادم الرب المكي «مناف» وهذا يدل على أن محمدا ﷺ لم يكن قد توصل في ذلك الوقت الى أية اكتشافات دينية ، ويحتمل أنه رأى كنائس مسيحية في سوريا ، ويكاد يكون محققاً أنه كان يعرف الكثير عن اليهود ودياناتهم ، وأنه استمع إلى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود في الكعبة ، الذي كانت له السيادة على الأرباب

القبلية الثلاثمائة ببلاد العرب ورأى جماهير الحجيج ، ولحظ أمارات الختل وعدم الإخلاص والخرافات المتجلية فى وثنية البلدة ، فضاق بذلك ذرعا ، وربما كان اليهود قد هدوه الى الاعتقاد فى الرب الواحد الحق دون أن يدرك ماحدث له — وجاء بآيات معينة أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء[1] .

ثم يقول ويلز فى موضع آخر من كتابه السابق تحت عنوان «محمد يصبح نبيا منافحا» : «لقد ظلت شخصية نبى الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أتم الحادية والخمسين من عمره موضوع تجاذب وتنازع بين أهل الرأى ، فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ ، وانا لنستبين فيه رجلا ذا قوة تصورية هائلة . وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا البدوى وأهم نقائصه» .

ثم يصل المؤلف إلى قمة مايريد قوله ، حيث يقول : لم يكن محمد ﷺ دجالا بأى حال وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه فى بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ، كأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله .. »[2] .

وفى موضع آخر من كتابه ذلك يقول : «فلما انتشرت التعاليم الجديدةوتكيفت فى قالبها الخاص اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ماتكون عن المجانسة لطبيعتها ، والتزمت أن تنمو فى تربة أخرجتها عن سبيلها السوى ، وحولتها عن طريقها القويم ، وكان مرجعها الوحيد هو القرآن ، وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التى لم تتذوق نغمات اللغة العربية ، أعنى كما يبدو لكثير من العقول الأوروبية اليوم خليطا من البلاغة الرائعة

---

(١) هـ .ج .ويلز : معالم تاريخ الإنسانية ٣/ ٦٢٦ . وما بعدها . (٢) السابق ٣/ ٦٢٦ ـ ٦٤٠ . مقتبسات متفرقة .

يمازجها – ولنقلها بصراحة – مقنعة غامضة لاكيف لها ، وقد غاب مغزاه الحق عن عدد لايحصى من المسلمين الجدد غيابا تاما »[1] .

وبعد : فهذا مجملٌ لآراء عدد قليل من المستشرقين فى القرآن الكريم ، وهو صورة دقيقة الدلالة على مايتهمون به القرآن الكريم من أنه كتاب محلى إقليمى . أو أنه كتاب يتأسى ديانة اليهود أو النصارى ، أو أنه من صنع محمد ﷺ !!!

ولو شئنا أن نستطرد بسرد آراء عدد آخر من المستشرقين لاتسع بنا القول إلى الحد الذى لانريده ، فحسبنا من هذا البهتان أن نشير إلى طرف منه ، كما أننا هنا بصدد أن نرد على هذه الأباطيل والترهات ، فإن البهتان فيها أوضح من أن يحتاج إلى مناقشة أو رد أو حوار ، فضلا عن أن ماكتبه كثير من علماء المسلمين وقليل من المنصفين من الباحثين الغربيين فيه مقنع وغناء .

ولم يجد واحد من هؤلاء الحاقدين على الإسلام والراغبين فى تشويهه ، حجة أو دليلا يؤيدون به ما أذاعوه من باطل وما اختلقوه من بهتان . وبحسبنا أن التاريخ نفسه يقف من هؤلاء الحاقدين وقفة المعارض المكذب لكل ما افتاتوا به على الإسلام .

غير أنى لا أستطيع أن أترك هذا المجال دون أن أطرح بعض التساؤلات وأثير بعض النقاط فأقول : لست أدرى كيف يتساءل «ماكدونالد» فيقول : هل كانت قد وجدت لديهم – يقصد الجاهلين – فكرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله ؟ ثم يعطف على ذلك قوله : وربما كان هذا تفسيرا من عند محمد ... أى أن محمدا قد ألف القرآن وتحدث فيه عن الملائكة الذين لم تكن لدى العرب عنهم فكرة سابقة .

ولو كان «ماكدونالد» الذى يبيح لنفسه أن يكتب عن القرآن والاسلام

---

(١) السابق : ٣/ ٦٥٧ .

بعرف قدرا يمكنه من الفهم الصحيح لما يقول ، لما قال ماقال . فلفظ «ملائكة» لفظ عربي أصيل . قال أبو عبيدة : ملك : فعل من لاك أى أرسل . والألوكة والمألكة : الرسالة ، قال لبيد :

وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل

وقال عدى بن زيد :

أبلغ النعمان عنى مألكا أننى قد طال حبسى وانتظارى

واشتقاق الملك من الألوكة وارد ، لاسيما وأن هذا المعنى يستأنس عليه ببعض آيات القرآن الكريم وهى حجة لغوية قاطعة ، قال تعالى : «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس»[1] وقال سبحانه : «الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ...»[2] وقال جل شأنه : «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ..»[3] . فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الملائكة مرسلون من عند الله ، مما يؤيد اشتقاق الكلمة من الألوكة وهى الرسالة ... أم أن «ماكدونالد» يحتاج الى دليل يؤكد أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية ؟

كذلك ، ما كان «لماكدونالد» أن يتساءل : إن كان العرب قبل الإسلام عندهم فكرة عن الملائكة ، لو أنه أتعب نفسه قليلا فى التعرف على تاريخ الجاهليين ، وتاريخ الأديان فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ذلك التاريخ الذى اعترف به وسجله مستشرقون مثل «ماكدونالد» أكدوا أن العرب فى الجاهلية كان بعضهم يعتقد أن الملائكة بنات الله ، حيث تصوروا أن الله أصهر إلى الجن وأن الملائكة هم بناته منهن ، وأن من العرب من كانوا يتقربون إلى الله بالملائكة استشفاعا بهم ، لأنهم بناته ولهن لديه حظوة . وبعض العرب كانوا يعتقدون أن اللات والعزى ومناة ، رموز وهياكل مادية

---

(١) الحج : ٥٧ . (٢) فاطر : ١ . (٣) النحل : ٢ .

من الأرض للملائكة الذين هم فى السماء ، فيعظمونها ويقومون بواجبات العبادة نحوها ، ويذبحون لها على هذا الاعتبار .

والآيات القرآنية التى تؤكد معرفة العرب للملائكة واعتقادهم بوجودهم وبأنهم رسل من عند الله آيات كثيرة نسوق منها قوله تعالى : «وقالوا لولا نزل عليه ملك »[1] وقال سبحانه : «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا »[2] .

والآيات القرآنية الدالة على اعتقاد العرب بأن الملائكة بنات الله ، وأن بعضهم كانوا يستشفعون بالملائكة عند الله وأن بعضهم كان يعبد الملائكة عبادة كاملة كثيرة ومن هذه الآيات قوله تعالى : «فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون »[3] وقوله تعالى : «أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما »[4] وقوله تعالى : «.. وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، إن الذين يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى »[5] .

لعل هذه الآيات تقنع «ماكدونالد» وأمثاله بأن الظن لايغنى من الحق شيئا ، ولعل ذلك يقنعه بأن الرسول ﷺ عند ماتحدث عن الملائكة لم يكن يفسر من عنده ، وإنما هى وحى أوحاه الله إليه ، هذا إن كان «ماكدونالد» وأمثاله ، يقتنعون أو يرجعون إلى الحق والصواب .

كذلك ضل «ماكدونالد» حين زعم أن لوازم السجع حملت الرسول ﷺ على وصف الله سبحانه بعدة صفات يتردد ذكرها فى القرآن ... فإن لهذا الزعم معنى واحداً عندى هو أن «ماكدونالد» لايعرف السجع ولا لوازمه ، ولايفرق فى الأساليب العربية بين مسجوعها وغير مسجوعها .

---

(١) سورة الأنعام : ٨ . (٢) سورةالفرقان :٧ . (٣) سورة الصافات : ١٤٩ - ١٥٠
(٤) الإسراء : ٤٠ . (٥) النجم : ٢٦ - ٢٧ .

ولو ذهبت أرد كل فرية مما زعم «ماكدونالد» لتحدثت فى بسائط وبداته لاتغيب عن عاقل أو عارف بأوليات الإسلام وأوليات اللغة العربية ، فضلا عن متعالم مغرور يتصدى للحديث عما لايعرف .

أما «جب» فان دعاواه الباطلة فى تأثر محمد ﷺ بضرورات الظروف الخارجية عنه المحيطة به ، أو زعمه بأن الرسول ﷺ قد استجاب لهذه المؤثرات استجابة ظهرت آثارها فى حياته وفى قرآنه وفى كفاحه ، مثل هذه الدعاوى ليس لها إلا أن تهاوى غير قادرة على النهوض لعجزها فى الاستناد إلى دليل أوهى دليل ، وليس الرد على مثل هذه المزاعم التافهة بمجد ولامغن أمام هذا الانغلاق الفكرى والتعصب المقيت ، المعمىَ عن الحق وعن مجريات التاريخ .

كذلك فإن ماهذى به «جب» من أن معارضة أهل مكة للرسول ﷺ لم تكن من أجل دينه ، وإنما عارضوه من أجل التنافس على الزعامة السياسية ، ولو كان «لجب» أدنى علم بالمتواتر من تاريخ الرسول ﷺ وهو فى مكة ، نعلم أن أهل مكة أنفسهم عرضوا عليه ﷺ فى زمن باكر من دعوته الناس إلى الإسلام أن يكف عن دعوته ، وأن يجمعوا له المال ، ويهيئوا له أسباب الزعامة والرياسة فرفض قائلا كلمته المشهورة :و« .. والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ماتركته ... »

أما كلام المستشرق : هـ . ج . ويلز : فان مافيه من الخطأ والتجنى مالم يسغ حتى فى عقول غير المسلمين من المستشرقين والحاقدين على الإسلام ، فلا ندرى من أين جاء : هـ . ج . ويلز بأن النبىَ ﷺ كان له ولد اسمه عبد مناف أى خادم الرب المكى مناف ، مع أن أسماء أولاده الذكور معروف مشهور لايحتاج من هـ . ج . ويلز إلى بحوث وتحقيقات وموضوعات – كما يزعم أغلب المستشرقين فيما يكتبون وهم : عبد الله والقاسم وإبراهيم ، إلا اذا أراد هـ . ج . ويلز أن يغير اسم عبد الله فيجعله عبد مناف . هذا شئ يخصه وحده . ولكنه فى الوقت نفسه لن يغير من التاريخ المعروف قليلا ولاكثيرا .

كذلك زعمه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الكنائس المسيحية فى سوريا . ان لنا أن نقول : متى ذهب الرسول ﷺ إلى سوريا ؟ وكم كان عمره آنذاك ! أهى رحلته مع عمه أبى طالب تلك الرحلة التجارية التى ما تجاوزت بصرى !

إن اتهامات هذا المستشرق لتدل على حرصه الشديد على التضليل والخداع – خداع من يقرأون له من أبناء جنسه – أما القراء المسلمون فليس منهم واحد لايعرف أن الرسول ﷺ لايقول الشعر ولاينبغى له ، حينما يسمعون كلام هـ . ج . ويلز حينما يصف الرسول ﷺ بأنه شاعر غير مجيد ، أما ادعاؤه بأن الرسول ﷺ له قوة تصورية هائلة وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا البدوى وأهم نقائصه فهى كلمات تقطر حقدا ومرارة ولاتستحق مجرد التعليق عليها ، ويكفيه من عمله أنه يصدر حكما عاما على العرب أجمعين وعلى البدو أجمعين مع التسليم لدى الجميع بأن تلك الأحكام العامة الشاملة لها من الدلالات على عقلية صاحبها ، وتصوراته ما يخرجه عن دائرة العقلاء أصلا .

ثم نحب قبل أن ينتهى هذا الفصل أن نطرح تساؤلا على هؤلاء المجدفين القائلين بغير علم ، الزاعمين الواهمين بغير دليل أو برهان ، نحب أن نتساءل قائلين : لماذا نال القرآن الكريم كل هذا التحامل وكل هذه الأباطيل ؟

ألهذا التحامل صلة بما حققه المسلمون من انتصارات – بتمسكهم بهذا القرآن – وعملهم بمقتضاه على فترات غير قليلة من التاريخ ؟

أبعد وصول جيوش المسلمين الى أوربا حاملة راية : «لا إله الله محمد رسول الله» ترفرف بالعدل والتسامح على ربوع الأندلس كله ؟ أيعد ذلك من الأسباب التى حملت المستشرقين على التهجم على القرآن الكريم صانع الرجال والأبطال ؟

أم نعد النظرة الفاحصة التى قارن بها بعض المنصفين من غير المسلمين

بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل التى بأيدهم ، هى المحرك لهذه الأحقاد والمثيرة لهذه التهجمات والمحركة لكل هذه التشويهات ؟

أم أن روح الحروب الصليبية العمياء لاتزال تسيطر على عقول هؤلاء وتطمس قلوبهم فينفثوا سموم أحقادهم تهجمات واتهامات ؟

أم أن الخوف من أن يعود المسلمون إلى كتابهم الكريم يستلهمونه حلول قضاياهم ومشكلاتهم بعد هذه اليقظة النسبية التى تطوف بكثير من بلدان العالم الإسلامى الآن ، قد أذهلتهم عن الحق وعن الصواب ، فأخذوا يقلبون الحق باطلا ، ويشوهون التى أُد ماوسعهم التشويه خشية أن يكون المصباح الذى يضيئ للمسلمين طريق صحوتهم ورشادهم ؟ أم هو مخطط سياسى على مستوى عالمى تتحالف فيه القوى العسكرية مع القوى الفكرية والثقافية لتمهد لغزو الفكر الإسلامى فى صميمه وهو القرآن الكريم ؟

أم أن الصهيونية العالمية المدمرة لكل قوى الخير فى البشر ، المعادية للإسلام والقرآن منذ فجر التاريخ الاسلامى ، قد استطاعت أن تجند من هؤلاء المستشرقين من ينفثون سمومهم ويروجون باطلهم . وينشرون افتراءاتهم على أقدس مالدى المسلمين وهو القرآن الكريم ؟

أم أن للنفط الذى أنعم الله به على كثير من البلاد الإسلامية – والذى أصبح اليوم مصدرا هاما للطاقة أى القوة والقدرة – صلة بهذه الحملات التشويهية التى تستهدف إقصاء أصحاب هذه المقدرات الهائلة من الطاقة ومايستتبعها من مال عن أن يجمعوا بين هذه الطاقات التى أنعم الله بها عليهم وبين المنهج الصحيح الذى يقف بهم على طريق العزة والسيادة والتمكن ، وهو القرآن الكريم ؟

محاولة تشويه السنة النبوية

وهى محاولات ضارية عميقة الجذور فى تاريخ حرب الاسلام ، بل هى محاولات تستهدف ماتستهدفه حرب القرآن الكريم من عزل المسلمين عن دينهم بتشويه مصدريه الأساسيين القرآن والسنة .

وهى حرب تدخل حديثا فى الغزو الفكرى للمسلمين ، وقد جند أعداء الإسلام لتشويه سنة النبى ﷺ ما جندوا من أقلام وكتب ومجلات وبحوث ، وملأوا بهذا التشويه كثيرا من الكتب والمجلات ودوائر المعارف التى تتحدث عن الإسلام وتعتبر مراجع لفكره وثقافته فى نظر كثير من الباحثين والدارسين الذين لايستطيعون قراءة الكتب العربية ، بل إن كثيرا من هذه المراجع ترجم إلى اللغة العربية واعتبره كثير من أبناء العربية مراجع هامة عن الإسلام فكره وتاريخه وثقافته .

ويبدو أن تطاول المستشرق « ماكدونالد » على الحديث النبوى الشريف واتهامه يجبرنا على أن نعود إلى الاستشهاد بما قال فى « دائرة المعارف الإسلامية » كذلك فإنه يقول : « يجدر بنا الآن أن نتكلم على الآراء التى أسندها الحديث إلى محمد ﷺ على أننا إذا حاولنا أن نجد فى الحديث مانستطيع أن نقطع بصحة نسبه إليه من الوجهة التاريخية . فإن عملنا هذا يكون لاغناء فيه على الإطلاق .

فمن الواضح أن هناك أحاديث كثيرة لايمكن أن تكون قد صدرت عنه ، كما أننا لن نستطيع أن نعرف أبدا الأحاديث التى صدرت عنه حقا »[1] ثم يستشهد « بجولد زيهر » على هذا الخلط والتشكيك فيقول : « وقد بين لنا جولد زيهر أن الأحاديث ليست فى الواقع إلا سجلا للجدل الدينى فى القرون الأولى ، ومن ثم كانت قيمتها التاريخية . لكن هذا السجل مضطرب . كثير الأغلاط التاريخية . وفيه معلومات مضللة لم تؤخذ من

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤/ ٢٥٥ ط دار الشعب –القاهرة

مصادرها الأولى حتى إنه أصبح لايصلح إلا لتكملة المصادر الأولى الأخرى وتوضيحها . ولهذا ينبغي أن نوجز الكلام فى الأحاديث باعتبار أنها تعبر عن آراء محمد ﷺ أو آراء المسلمين فى صدر الإسلام ولايقتصر الأمر على هذا فإن الأحاديث التى نجد فيها مشابهة لما ورد فى القرآن مشكوك فيها كذلك »[1] .

ثم يواصل « ماكدونالد » فيقول عن الحديث النبوى : « ثم دخل على الحديث فيما بعد زيادات وتغييرات كثيرة . وأول هذه الزيادات ما كان خاصا بالأساطير . ثم جعلت الأحاديث صفات الله أكثر وضوحا . وفصلت الكلام فى صلته بالملائكة والجن . ونما الاعتقاد فى الجن وأصبح الكلام فى فعل الله معقدا . نجد هذا كثيرا فى صحيح البخارى وبخاصة فى كتاب التوحيد وبدء الخلق . ونجد فيه كذلك الكلام عن وجه الله وعن عرشه . وعن خلق السموات والأرض . وجاء فيه أيضا أن الله يتنزل الى السماء الدنيا فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ (كتاب التوحيد من صحيح البخارى ط القاهرة ١٣١٢ هـ ٤/١٧٩) وترد كذلك قصة آخر من يدخل الجنة من أهل النار . وكيف يضحك الله منه (نفس المصدر ٤/١٧٢ – ١٧٣) وفى الآخرة يمسك الله الأرض على إصبع والسموات على إصبع ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض (نفس المصدر ٤/١٦٧ – ١٧٥)وورد الكلام عن عينيه فى القرآن تارة بالمفرد (سورة الفرقان الآية ٤٠) وتارة بالجمع . (وجاء فى الحديث أنه ليس كالمسيح الدجال . وكان من جراء الزيادة) فى الحديث أيضا أن اشتد التناقض فى صفات الله . ولهذا نجد حديثا يكثر وروده وهو : إن رحمتى تغلب غضبى أو تسبقه (السابق٤/١٦٩ ١٧٥٠) ونجد من جهة أخرى ذلك الحديث المخيف : هؤلاء للجنة ولا أبالى . وهؤلاء للنار ولا أبالى » (إحياء علوم الدين للغزالى ٧/٣٠٨) .

ومما تجدر ملاحظته أن الأحاديث التى تتكلم عن مسائل الغفران بالذات يبدو فيها التناقض واضحا جليا . فمن ناحية نجد أن النطق بالشهادتين وقليلا من العمل الصالح يكفل للعبد الغفران . ونجد من ناحية أخرى أن تسعا وتسعين وتسعمائة وألف سيذهبون إلى

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤/ ٢٥٥ ط دار الشعب –القاهرة

النار . وقد انتهى الأمر فى هذا المزاح فقيل : إن التسعة وتسعين وتسعمائة - يكونون من يأجوج ومأجوج (البخارى ١٤٣/٣) .

ومن الواضح أننا نلمح هنا أثر الجدل الذى ثار بين الفرق فى وقت متأخر . ويبدو لنا هذا الأثر أشد وضوحا فى القول بأن الأمة الناجية ستكون ممن يقطنون الشام (السابق ٧٦/٤) ولاشك فى أن المقصود بهذا بنو أمية ....

ثم يختم « ماكدونالد » كلامه عن الأحاديث النبوية بقوله : « ونستخلص مما تقدم أنه لاشك فى أن الأحاديث فى ذاتها لاتعتبر أساسا يمكننا أن نبنى عليه الحقائق التاريخية »[1] .

وليس « ماكدونالد » و « جولد زيهر » وحدهما فى هذا التهجم على السنة النبوية بقصد تشويهها والتشكيك فيها . وإنما يشاركها فى ذلك كثير من أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين والصهيونيين .

وهو تهجم لايقوم على دليل ولايستند إلى حجة - إلا إذا اعتبرت الأوهام والظنون من الحجج والبراهين .

ونستطيع أن نجمل الاتهامات التى وجهت إلى السنة النبوية من الأمور التالية :

الادعاء بأن هناك أحاديث كثيرة لايمكن أن تكون قد صدرت عن النبى ﷺ .

والادعاء بأن محاولة وجود شئ فى الحديث النبوى يمكن القطع بصحة نسبته إلى النبى ﷺ تاريخيا ، محاولة فاشلة .

الادعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت فى الآراء أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التى يؤيد بها رأيه .

الادعاء بأن الأحاديث النبوية ليست الا سجلا للجدل الدينى فى القرون الأولى ، الأمر الذى يجعل لها من هذه الزاوية قيمة تاريخية على الرغم من أن

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤/ ٢٥٦ - ٢٥٧ .

هذا السجل مضطرب كثير الأغلاط التاريخية ملئ بالمعلومات المضللة التى تؤخذ من مصادرها الأولى .

ويحسبها أنها جميعا ادعاءات لم تستند إلى مايقنع من دليل أو برهان .

ويحسب الأمة الإسلامية أنها الوحيدة من بين الأمم التى عاشت على الأرض فى ماضى البشر وحاضرهم التى بذلت من العناية فى حفظ أسانيدها مالم تبذله أمة أخرى ، يشهد بذلك التاريخ نفسه والمنصفون من المؤرخين . وكان بودى لو تعرضت لهذه الادعاءات فبددتها بالحق والبرهان ، وكان بودى لو عرضت لما هذى به «ماكدونالد» وما نفس به «جولد زيهر» عن أحقاده ، ولكن المجال هنا لايتسع للردود والمناقشات – ونحن بصدد رصد مظاهر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام – ونكتفى هنا بأن نذكر ماعلق به أحد العلماء المسلمين الأفاضل على هذه المادة التى هذى بها «ماكدونالد» فى دائرة المعارف حيث يقول : «وقد عنى المسلمون بحفظ أسانيد شريعتهم من الكتاب والسنة بما لم تعن به أمة قبلهم ، فحفظوا القرآن ورووه عن رسول الله ﷺ تواترا آية آية وكلمة كلمة وحرفا وحرفا ، حفظا فى الصدور ، وإثباتا بالكتابة فى المصاحف حتى رووا أوجه نطقه بلهجات القبائل ، ورووا طرق رسمه فى المصحف ، وألفوا فى ذلك كتبا مطولة وافية ، وحفظ المسلمون أيضا عن نبيهم كل أقواله وأفعاله وأحواله ، وهو المبلغ عن ربه والمبين لشرعه والمأمور بإقامة دينه : وكل أقواله وأفعاله بيان للقرآن ، وهو الرسول المعصوم والأسوة الحسنة ، قال تعالى : «ومايتطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى» (٥٣ : ٣ ، ٤) ، وقال تعالى : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون» ١٦ : ٤٤ ، وقال أيضا : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ٣٣ : ٢١) وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل شئ يسمعه من رسول الله ﷺ فنهته قريش فذكر للرسول ﷺ فقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى إلا حق) ففهم المسلمون من كل هذا أنه يجب عليهم أن يحفظوا عن رسولهم كل شئ ، وقد فعلوا ، وأدوا الأمانة

على وجهها – ورووا الأحاديث عنه بعضها متواتر إما لفظا ومعنى ، وإما معنى فقط ، وبعضها يعرف بالأحاديث الصحيحة الثابتة مما يسمى الحديث الصحيح والحديث الحسن ، ولم يحتجوا فى دينهم بغير هذه الأنواع التى لايعارض فيها إلا جاحد أو مكابر ... »[1]

ولعل فى بعض ذلك رد على «جولد زيهر» و «ماكدونالد» وأمثالها من الحاقدين على الإسلام الراغبين فى تشويه مصدريه الأساسين القرآن الكريم والسنة النبوية .

وإن السنة النبوية المطهرة لهى المفتاح الحقيق الوحيد لفهم القرآن الكريم ، بل هى مفتاح الحضارة الإسلامية منذ أرسى رسول الله ﷺ أسس هذه الحضارة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإن العمل بمقتضى السنة النبوية هو المحافظة الحقيقة على كيان الإسلام نفسه وهو فى الوقت نفسه إحياء لحضارة الإسلام التى شملت كل مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية الراشدة ، وعالجت كل مشكلة تعترض سير الإنسانية نحو رشدها وهداها .

وان إهمال العمل بالسنة النبوية أو التساهل فى شىء منها زلزلة لكيان الإسلام وتقويض لصرح حضارته . وليس لأعداء الإسلام فى الحاضر من هدف أهم ولا أكبر من تشويه هذه السنة النبوية وتشكيك المسلمين فيها أو فى جدوى التمسك بها ، عن طريق تكذيبها أو رميها بالتناقض والتعارض أو التهوين من شأن العمل بها .

وإن آفة هذا العصر الذى نعيشه أن بعض الناس فيه يتعالمون بأن ينكروا صحة الأحاديث النبوية أكثرها جريا – غير واع ولامدرك للنتائج – وراء ما رووه أعداء الإسلام وما زوروه ، ويتبع ذلك أن بعض الناس يسوّغون

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤/ ٢٧٤ ...

لأنفسهم ألا يعملوا بمقتضى هذه السنة. بحجج واهية وتعلات هي المرض والضعف والتبعية .

وإن أصابع أعداء الإسلام من مستشرقين وأذناب لهم ، ومن مبشرين وضالين بضلالهم ، ومن قوى أخرى شقية ودمى ضعيفة تتحرك بتحرك هذه القوى ، إن أصابع هؤلاء جميعا تعبث وهي تزور وتفسد ، وتملأ نفوس السذج والتفهاء بالشك والانكار .

وما نحب أن نقوله لهؤلاء الأتباع ومتبوعيهم ، أولئك الذين لايحسنون غير الإنكار والتكذيب والتشكيك ، هو أن يأتوا على مايدعون بدليل منطقي ينفون به السنة النبوية المطهرة . فإن عجزوا - وهم لابد عاجزون - لقلنا لهم : إن أجيالا من هؤلاء المنكرين جاءت وراء أجيال ، ومجموعات من الحاقدين تلتها مجموعات ، ما استطاعوا مجتمعين ولامتفرقين أن يأتوا في مجال إنكار السنة النبوية بشئ يستحق المناقشة فى فترة من فترات تاريخ حقدهم الطويل .

وإذا كان الجامعون لسنة رسول ﷺ فى الزمن الباكر . والجامعون لكتب الحديث النبوى الأولى ، مثل الامامين البخارى ومسلم ، قد قاموا فى هذا المجال - مجال الدقة والتحرى والتثبت من كل حديث ومن كل راوٍ - بما يعد صورة فريدة من نوعها فى تاريخ الإنسانية كله ، لم تعرف له أمة من الأمم نظيرا فى حفظها لتراثها - فإن فى ذلك مايخرس ألسنة المتقولين ومايرد كيدهم .

ويكفى للدلالة على ضخامة الجهود التى بذلت فى هذا السبيل أن نشأ علم ذو قواعد وأصول هدفه الوحيد أن يبحث فى متن الأحاديث وسندها ، وفى أحوال الرواة وشروطهم ، وما يوصفون به صفات الجرح أو التعديل ، وإن نظرة عابرة إلى تلك المواصفات التى اشترطت فى رواة الأحاديث لتقنع الجاحد قبل غيره بأن الثقة فى السنة النبوية ثقة بغير حدود .

واذا كانت الحجج قد قامت على صحة الأحاديث النبوية فان هؤلاء المنكرين المبلطين مطالبون بأن ينقضوا هذه الحجج أولا ، ثم يؤكدوا مزاعمهم

بأدلة وبراهين ، وما هم بمستطعين هذا ، ولاهم بقادرين على ذلك ، وقد غيروا فى هذه المحاولات السنين وراء السنين ، وتطاول زمن الحقد بهم فعجزوا وراحوا يتخبطون فى غير هدى .

لكنها الرغبة الملحة فى تشويه مصدر كبير من مصدرى الإسلام هو السنة النبوية المطهرة ، حتى لايواجهون من جديد بأجيال من المسلمين تحسن التمسك بسنة الرسول ﷺ فتحسن بها الحياة وتحسن الانتصار فى المعارك ، وتحسن اقامة الحق والميزان وزرع العدل والإحسان فى البشرية كلها ، وهذا أخوف مايخافه أعداء البشرية أعداء الإسلام . إذ به تذهب ريحهم وتضيع أرباحهم .

محاولة تشويه شخص الرسول

(صلى الله عليه وسلم)

وهى محاولات قديمة حديثة مستمرة ، يمارسها أعداء الإسلام برغبة وشوق ويرون فى التهجم على المعصوم ﷺ والنيل منه جزءا من خطة كبيرة تستهدف تشويه الإسلام وعزله عن حياة المسلمين بخاصة والناس بعامة ، لتحل محله الفكر الغربى والحضارة الغربية ، والشخصيات الغربية ذات الشهرة عندهم .

وفيما سلف من البحث رأينا أعداء الإسلام وخصومه شكولا وألوانا . صهيونيين ومبشرين ومستشرقين واستعماريين ، ورأينا محاولاتهم فى تشويه الإسلام تتجه بالدرجة الأولى إلى القرآن الكريم وسنة المعصوم ﷺ ، ونحن هنا بصدد عدد من الأعداء يحاولون النيل من شخص الرسول ﷺ ، بقصد تنفير الناس من الإسلام وجذب بعض ضعاف المسلمين الى غير الإسلام ، لذلك يكرسون جهودهم لاختراع التهم واصطناع الأباطيل يلصقونها بالإسلام وبمحمد المعصوم ﷺ ، وهؤلاء الأعداء عدد عديد نعرفهم من لحن القول ونستدل عليهم من بحوثهم ودراساتهم التى يطنطنون بها حينا ويطنطن لهم بها - من أسف - بعض المسلمين فى أحيان كثيرة .

ولا أحب أن يفوتنى فى هذا المجال أن أسرد أسماء بعض هؤلاء الأعداء الحاقدين وأن أشير إلى بعض كتبهم وبحوثهم التى هاجموا فيها الإسلام ومحمدا ﷺ .

وإنما يدفعنى إلى ذلك رغبة شديدة فى أن تتعرف أجيال المسلمين على أعداء دينهم وأعداء رسولهم ﷺ ، حتى لاينخدعوا فيهم كما انخدع أسلافهم ، ولكى لاتكون لهؤلاء الأعداء ولا لبحوثهم تلك المكانة التى يتمتعون بها الآن .

من هؤلاء الأعداء الحاقدين على الإسلام وعلى النبي ﷺ :

١ - وليم موير : W. Muir في كتابه : حياة محمد .

٢ - هنرى لامنس اليسوعى : H. Lammes في كتابه : الإسلام

وقد بلغ من حقد هذا الرجل على الإسلام أن تخبط فيما يكتب إلى الحد الذى أزعج بعض المستشرقين أنفسهم .

٣ - ألفردجيوم : A. Geom فى كتابه : الإسلام .

٤ - صمويل زويمر : S. M. Zwimer فى كتابه : الإسلام (تحد لعقيدة) .

٥ - كنيثكراج : K. Cragg فى كتابه : دعوة المئذنة .

٦ - أ . ج . أربدى : A. J. Arbrry فى كتابه : الإسلام اليوم .

٧ - جولد زيهر : Goldziher فى كتابه : تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى .

٨ - هـ . أ . ر . جب : H. A. R. Gibb فى كتبه :

أ - طريق الإسلام .

ب - الاتجاهات الحديثة فى الإسلام .

جـ - المذهب المحمدى .

د - الإسلام والمجتمع الغربى .

٩ - أ . ج . فينسنك A. J. Wensink فى كتابه : المستشرقون والإسلام .

١٠ - د . س . مرجليوث : D. S. Margoliuth فى كتبه :

أ - محمد ومطلع الإسلام .

ب - التطورات المبكرة فى الإسلام .

جـ - الجامعة الإسلامية .

د – قنطرة إلى الإسلام .

١١ – ج . فون . جرونيباوم G. Von. Grunbaum في كتبه :

أ – إسلام العصور الوسطى .

ب – الإسلام .

ج – الأعياد المحمدية

د – الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية .

هـ – دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية .

١٢ – د . ب . ماكدونالد : D. B. Macdonald في كتابه : تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام .

١٣ – ر . أ . نيكلسون : R. A. Nicholson في كتابه : متصوفو الإسلام .

١٤ – ر . بل : R. Bell وفي كتابيه :

أ – أصول الإسلام في بيئته المسيحية .

ب – مقدمة القرآن .

١٥ – آرثر جيفرى : Arther. Jaffry في كتابه : مصادر تاريخ القرآن .

١٦ – يوسف شاخت : J. Shaeht في كتابه : أصول الفقه الإسلامي .

١٧ – آرنولد توينبي : A. Toynbee في كتابه : دراسة في التاريخ – القسم الخاص منه بالإسلام وبمحمد ﷺ .

١٨ – فيليب حتّى : P. H. Hitti – وهو مسيحي لبناني في كتابه : تاريخ العرب . وفيه تجن عنيف على شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

١٩ - مجيد خورى : مسيحى عراقى ، فى كتابه : الحزب والسلام فى الإسلام

٢٠ - إبراهام كاش : فى كتابه : اليهودية فى الإسلام .

٢١ - إدوارد فرمان : E. Ferman فى كتابه : تاريخ المسلمين وفتوحاتهم .

٢٢ - ج . س . آرثر : G. S. Arther فى كتابه : العناصر الصوفية فى محمد .

٢٣ - ر . بلاشير : R. Blacher فى كتابه : مقدمة القرآن .

٢٤ - سنوك هورج رونجه : Snouk. Horgronje فى كتابه : الإسلام .

ولو أردنا الإحصاء أو الاستقصاء لما وسعتنا صفحات هذا البحث .

وكل هؤلاء حاولوا تشويه الإسلام ونالوا من شخص الرسول ﷺ فيما كتبوا ، وافتاتوا على الحق وموهوا وملأوا الدنيا ضجيجا بأصوات الباطل وهراء الجاهلين وسموم الحاقدين ، وغيرهم ممن شاركهم هذا العمل الخبيث كثيرون .

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء وأترابهم عددا غير قليل من المسلمين - مع بالغ الأسف - الذين سخروا أقلامهم وكتبهم لترديد مايقوله هؤلاء الأعداء جريا وراء السراب الخادع من مجد ينالون أو مكانة ، أو رعاية لحق الأستاذ على تلميذه الضائع العليل .

فاذا أضفنا الى هؤلاء وأولئك عددا آخر من الملاحدة والمارقين ، والماديين والصهيونيين ، رأيناكم تشوه صورة الاسلام وصورة الرسول الكريم ﷺ .

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن عدداً كبيراً من المستعمرين وأتباعهم وأذنابهم أصحاب مصالح مباشرة فى حرب الإسلام وتشويهه ، أدركنا عمق المحاولات وتعدد أنواع القائمين عليها .

وإذا لحظنا أن الصهيونية العالمية تخطط منذ زمان غير قصير لحرب الأديان جميعا وبخاصة الإسلام . وتعمل جاهدة على تحطيم القيم الخلقية وبخاصة القيم الخلقية الإسلامية ، عرفنا إلى أى مدى يتعرض الإسلام لحملات التشويه ، وإلى أى مدى يفترى على المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وبعد : فما أثقل على النفس من نقل تلك التهم الباطلة التى وجهت الى محمد ﷺ ، ولكن ضرورة البحث تتطلب منى بعض الإشارات الدالة .

وأهم ما هاجموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تكذيبه فى الوحى الذى أوحاه الله إليه ، وترتب على هذا التكذيب دعواهم الباطلة بأن محمداً صلى الله عليه وسلم قد ألف القرآن الكريم من عند نفسه .

ولقد تخبط هؤلاء الأعداء فى الحديث عن الوحى إلى الحد الذى يدعو إلى الدهشة ويثير الحيرة والتساؤل .

هذا هو نولدكه يقول عن الوحى : «إن سبب الوحى النازل على محمد (صلى الله عليه وسلم) والدعوة التى قام بها هو ما كان ينتابه من داء الصرع»[1] .

وهذا هو كارل بروكلمان – المستشرق المحظوظ بين المسلمين – يقول عن محمد صلى الله عليه وسلم : «واستخدم محمد فى دعوته أساليب الكاهن ، كما عزا – على غراره ... أحوال غيبوبته وما يصدر فى هذه الأحوال من تصريحاته إلى رفيق ذكر فيما بعد أنه الملك جبريل – واعتقد أنه رسول الله إليه»[2] .

ثم يقول فى موضع آخر من كتابه : تاريخ الأدب العربى : «كان النبى (صلى الله عليه وسلم) فى أقدم مراحل دعوته الدينية يطلق ما يدور بخلده وهو صادق الاستغراق والغيبوبة فى جمل مؤثرة يغلب عليها التقطع والإيجاز وتأخذ طابع سجع الكهان ، واحتفظ النبى (صلى الله عليه وسلم) أيضاً بهذا القالب

---

(١) لوتروب ستودارد : حاضر العلم الإسلامى : ٣٤/١ ترجمة نويهض .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى : ١/ ١٣٤ . ترجمة عبد الحليم النجار .

الكلامي بعد ذلك حينما أخذ يتنقل باطراد من طبيعة الغائب المستغرق إلى طبيعة الداعية الواعظ ، فكان يتلو في جمل أطول من الأولى تحذيراته وتعلياته التي حفلت كثيراً بالقصص من العهد القديم ومن الهجادة »[1]

وأما مارجليوث : « – وهو أخبث المستشرقين وأشدهم بغضاً لمحمد ، وهو الذي اعتمد عليه الدكتور طه حسين في النظرية الساقطة بأن شعر الجاهلية موضوع بعد الإسلام – فإنه يقول : أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان يمارس الشعوذة ، وكانت له مجالس سرية أشبه بالمحافل الماسونية ، وعلامات يتعارف بها مع أصحابه ، وكانوا يرخون عذبة العمامة فوق مناكبهم ... »[2] .

ومما هاجم به : هـ . ج . ويلز : الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قوله : « بيد أن من الضروري أن نذكر حادثة واحدة محيرة في حياة النبي الجديد ، يقول عنها السير ماكس سيكس : (أنها تثبت أنه كان عربياً صميماً) فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله ، قد داخله التردد ، فأتى ساحة الكعبة وأعلن أن أرباب وربات مكة قد تكون قبل كل شيء حقيقية ، وقد تكون فصيلة من القديسين ممن لهم قوة الشفاعة ، فلقي تراجعه حمية وحماسة ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم ، وذلك يدل على أن الخوف من الله كان ولا جرم يملأ قلبه ، فما بدر منه في الأمانة دليل على أنه أمين ، ومن ثم فعل كل ما في وسعه لإصلاح ما فرط منه ، فقال : إن الشيطان تلبّس لسانه ، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجددين ، وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة على صورة أشد وأعنف ودون أي أمل آخر في الصلح »[3] .

---

(١) السابق : ١٣٧ .

(٢) لوثروب ستووارد : حاضر العالم الإسلامي : ترجمة عجاج نويهض وتعليق المرحوم : شكيب أرسلان .

(٣) هـ . ج ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : ٣/٦٢٩ ـ ٦٣٠ .

وهذا لامنس اليسوعى يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن محمداً كان كثير الطعام والشره مسترسلاً فى اللذات البدنية» وزعم أن النبى (صلى الله عليه وسلم) مات بالبطنة .

ولا أجد أروع فى فضح لامنس وإظهار نواياه الخبيثة وأحقاده الدفينة من قول مستشرق آخر فيه – وهو المستشرق «رينه» : «وأن لامنس اليسوعى فى أول كتابه عن محمد صاح متأوهاً من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التى كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب إدخاله فى الإسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر ، واستتبابه إلى يوم الناس هذا ينمو وينتشر فى أفريقية وآسية بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين فلذلك زعم لامنس أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام إلا أن حالة عقلية كهذه – كما يقول رينيه – لا تلتئم مع بحث علمى مبنى على تجرد ممحض من الهوى ومنزه عن البغض»[1] .

هكذا يكتبون عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهكذا يحاولون تشويه شخصيته باتهامه بهذه التهم الحاقدة الكاذبة ، وكل ما يقولون باطل باطل ، ولا نحتاج هنا إلى أن نرد عليه ، فقد توفر على الرد عليه بعض علماء المسلمين ، وبعض المستشرقين أنفسهم .

وليس فيما قالوه عن النبى صلى الله عليه وسلم من تهم وأباطيل شىء يستطيع أن يقف على قدمين فضلاً عن أن يواجه بنقد ورد وإقناع .

وليس من شأننا فى هذا البحث الذى نرصد فيه مظاهر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ومؤسساته ووسائله أن نعنى بالردود والمناقشات لهذه الأباطيل ، وانما يكفينا هنا أن نكشف عن مخططات الغزو الفكرى للمسلمين ، وتيارات العداء التى تستهدف تشويه صورة الإسلام المشرقة المضيئة

---

(١) السابق : ١/ ٣٦ .

القادرة على نقل الناس كل الناس من الضلال إلى الهدى ، وتشويه شخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذى استطاع أن يصل بدعوته فى زمن قصير إلى أسماع كسرى وقيصر ، والذى استطاع برجاله الذين رباهم على الإسلام أن يصل بهذا الدين إلى أوسع مدى ينتشر فيه فى أقل من قرن واحد من الزمان .

والهدف واضح وهو عزل المسلمين اليوم عن هذا الدين الإيجابى الممتد فى البشرية بأحسن مبدأ وأشمل منهج وأكمل نظام ، حتى لا تعود للمسلمين المكانة التى كانت لهم فى الماضى والتى يمكن أن تكون لهم فى الحاضر والمستقبل .

محاولة تشويه التاريخ الإسلامى

إن محاولة غزو المسلمين عن طريق تشويه التاريخ الإسلامى عمل على جانب كبير من الأهمية لدى أعداء الإسلام وخصومه يجندون له من الطاقات والإمكانات ما يمكن أن نتصوره وما لا يخطر لنا على بال .

إن حشداً هائلاً من العلماء والمتعالمين ، وأصحاب دور النشر والصحف فى هذا العصر الذى نعيشه يقفون دائماً على أتم الاستعداد للقيام بأعمال التشويه والتزييف لكثير من حقائق التاريخ الإسلامى فمنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى الآن مروراً بمختلف العصور التاريخية للمسلمين .

ولدَىَّ الآن سطور قليلة تدل على رغبتهم القوية فى تشويه التاريخ الإسلامى ، جمعتها من كتاب : معالم تاريخ الإنسانية لـ : هـ. ج. ويلز – ذلك الكتاب الذى لقى من القبول فى العالمين العربى والإسلامى ما لم يلقه كتاب آخر ، كما كان من حظ مؤلفه أن أعجب به عدد غير قليل من الكتاب الأدباء ، يقول ويلز : «ولا يقوم أقل شك فى أنه إن كان محمد هو ذهن الإسلام البدائى وخياله ، فقد كان أبو بكر ضميره وإرادته ، فى كل حياتهما معاً كان محمد هو الذى يقول الشىء فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان وأمتنه ، فإذا تردد محمد أسنده أبو بكر»[1] .

وليس خفياً ما يحاوله هـ. ج. ويلز من تشويه لتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ الصديق أبى بكر رضى الله عنه .

ولم يقف المؤلف عند هذا الحد ، وإنما تناول أمير المؤمنين عمر بن

---

(١) هـ.ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : ٣/ ٦٤٣ ترجمة عبد العزيز جاويد القاهرة ١٩٤٧م .

الخطاب فى أسلوب خبيث لا ينطلى على غير التفهاء فهو يمدح خالداً ليذم عمر رضى الله عنهما ، يقول : «ويبرز اسم خالد (ابن الوليد) أزكى نجم وأسطعه فى مجموعة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء ، فحيثما حل قائد الجيش انتصر ، ولما أن خلعته غيرة الخليفة عمر بن الخطاب ظلماً منه لا يغتفر ، لم يحدث أية ضجة ، بل خدم الله فى سرور وإخلاص تحت إمرة الذين كان كبيراً عليهم»[1] .

وعن خالد نفسه ينقل ويلز عن : «سكوارتز» فى تاريخ العالم (هلموت) أن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوى على وصمة ، فإنه ارتكب الفسق وهى خطيئة فى مجتمع يبيح كثرة الزوجات»[2] .

هكذا يحاول ويلز أن يشوه تاريخ عمر وتاريخ خالد وتاريخ الإسلام كله ، أن كلمته : «إرتكب الفسق فى مجتمع يبيح كثرة الزوجات» كلمة خبيثة تشوه خالداً رضى الله عنه ، لأنها توحى بأن الفسق ليس خطيئة فى مجتمع لا يبيح تعدد الزوجات ، مع أن الفسق خطيئة فى كل مجتمع ، فضلاً عن حرمته فى كل دين .

ويعود المؤلف ليجمع بين أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فيقول : «فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخب فى المدينة للخلافة بطريقة تصايحية غير رسمية ، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثالث ، على أن ثلاثتهم كانوا مكيين من أسر عريقة ، ولم يكونوا من رجال المدينة ، ومع أن أبا بكر وعمر كانا رجلى بساطة متقشفة مطلقة واستقامة فقد كان عثمان أدنى منهما مرتبة وهو رجل من طبقة المترفين ومن طراز أصحاب الثياب الحريرية التى لم يكن الغزو لديها من أجل الله ، بل من أجل بلاد للعرب ، وبخاصة من أجل مكة بلاد العرب ، وبالأخص لنفسه وللمكيين وعائلته بنى أمية ،

---

(١) السابق : ٣/ ٦٤٣ .

(٢) السابق : ٣/ ٦٤٣ .

كان رجلاً ذا مكانة ، نصب نفسه لخدمة وطنه وبلدته وقومه ، ولم يسلم مبكراً كما فعل سلفاه ، وانضم إلى النبى لأسباب سياسية فى عملية أخذ وعطاء عادلة ، وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلاً عجيباً له ذاتية مدهشة متوقدة ، ويصبح ملكاً شريكاً لكثير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد ، ملكاً لا بأس به إذا قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين ولكنه لا يزيد على ذلك شيئاً »[1] .

وليس تضليل هـ. ج. ويلز فى حديثه عن الخليفة الثالث رضى الله عنه خافياً على أحد له أدنى علم بالتاريخ ، فلم ينتخب أبو بكر رضى الله عنه بطريقة تصايحية ولا عمر انتخب بها ولا عثمان رضى الله عنهم .

ولم يكن عثمان من طراز أصحاب الثياب الحريرية الذين لا يجاهدون من أجل الله وإنما من أجل البلاد والقوميات والقبائل ، وليس صحيحاً أن عثمان أسلم بعد إسلام عمر ، ولا أنه انضم إلى النبى لأسباب سياسية تقوم على الأخذ والعطاء ، ولم يكن رضى الله عنه ملكاً ولا شبه ملك .... هكذا يتحدث « ويلز » عن تاريخ المسلمين .

وحديث ويلز عن الإسلام نفسه ينفث خطراً وسماً وحقداً وضيقاً بانتشار الإسلام بهذه السرعة فى الناس ، حيث يعزو سرعة انتشاره إلى أسباب عجيبة لا يقوم عليها دليل ولا برهان ولا يسندها منطق ، يقول فى ذلك ويلز : « فإن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوباً بليدة سياسياً ، تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم ، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب أصالة ... »[2] .

وإن العناوين التى يختارها هؤلاء الباحثون فيما يكتبون لتدل بحق على

---

(١) السابق : ٣/ ٦٥٠ - ٦٥١ .

(٢) السابق : ٣/ ٦٤٥ .

حقدهم وتعصبهم ، وعلى سبيل المثال فإن هـ. ج. ويلز عندما يتحدث عن تراجع بعض الحكام العباسيين عن الإسلام ، وبالتالى يلحظ ضعف هؤلاء الحكام وانحلال حكمهم أو ملكهم ، يختار ويلز لذلك عنواناً يقطر حقداً وبطلاناً إذ يقول عن ذلك : «انحلال قوة الإسلام فى ظل العباسيين»[1] وأبسط الناس ذكاء وإدراكاً يعرفون أن الانحلال ليس للإسلام وإنما لبعض الحكام المسلمين ، والفرق بين التعبيرين شاسع ، وإلا لجاز لنا - قياساً على هذا الفهم العاجز القاصر- أن نقول عن المسيحية - وهى شريعة من عند الله حرّفها بعض الناس فخرجوا بها عما أنزله الله على عبده ورسوله المسيح عيسى بن مريم ، جاز لنا أن نقول : «إشراك المسيحية أو كفر المسيحية أو ضلال المسيحية» وهذا خطأ كخطأ «ويلز» والصواب أن يقال : إشراك بعض المسيحيين أو كفرهم أو ضلالهم ، ونعود فنقول : إن الفرق بين التعبيرين لا يحتاج إلى ذكاء شديد ولا إلى علم غزير يضفيه بعض الناس على «ويلز» .

هذه لمحة خاطفة عن محاولة أعداء الإسلام تشويه تاريخ المسلمين فى العصور الباكرة من تاريخ الإسلام . نقلناها عن كتاب واحد من بين عشرات الكتب ومئات البحوث التى أشرت إليها فى مستهل هذا الفصل من البحث .

وهى لمحة دالة أكبر الدلالة على ما يضمر هؤلاء الأعداء للإسلام من حقد وكراهية وما يدبرون من مكايد وما يرغبون فيه من شن أعتى الحملات التخريبية على الإسلام .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الفترة الزمنية التى عنينا بأن نرصدها فى هذا البحث ، وهى ما يقرب من قرنين قبل هذا الزمن الذى نعيشه الآن ١٣٩٦ هـ .

أهم ما يعنينا أن نتحدث عنه فى مجال تشويه التاريخ الخاص بالمسلمين هو تاريخ الدولة العثمانية ، وبعض البلدان الإسلامية الأخرى - كفارس

---

(١) السابق : ٣/ ٦٥٨ .

وأفغانستان ومصر والشمال الأفريقى المسلم ، والسودان وشبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا وفلسطين ، وشرق الأردن ، التى كانت فى ركب الدولة العثمانية أو تابعة لها .

هذه الدولة العثمانية التى حققت انتصارات للمسلمين على الأوروبيين . وبسطت سلطانها ونفوذها على معظم بلدان العالم الإسلامى وعلى جزء كبير من أوربا ، وكانت شجىً فى حلوق أعداء الإسلام - فهى بغير شك لم تكن الدولة الإسلامية الملتزمة بكل ما جاء به الإسلام من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية ، شأنها فى ذلك شأن أى دولة قامت بين المسلمين ، لها حسناتها وفيها سيئاتها ، وهى - كذلك لا ينبغى أن تحسب كل أعمالها وسياساتها على أنها النمط الإسلامى لسلوك الدولة فى الإسلام - كما يحاول الأعداء دائماً أن يربطوا بين هذا وذاك - إذ من الخطأ الكبير - كما أسلفنا غير مرة - أن تحسب أخطاء المسلمين على الإسلام نفسه .

ومن الحقائق الأولية التى يعرفها أى دارس لتاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حوالى منتصف القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى - وإلى أن تحالفت ضدها دول أوروبا أغلبها على إسقاطها والقضاء عليها ، هى أن هذه الدولة استطاعت أن تلم شعث المسلمين وأن تجعل منهم قوة ، بيد أن الخلافات والصراعات قد دبت بين حكامهم فترات غير قصيرة من الزمان ، ومن عجب أن كل عمل مخالف للإسلام قام به بعض حكام هذه الدولة لقى ترحيباً شديداً من أعداء الأمة الإسلامية مبشرين ومستشرقين ، وأن كل عمل موافق لمنهج الإسلام فى الحياة قام به بعض هؤلاء الحكام قد لقى من هؤلاء الأعداء تهجماً ونقداً مراً ، وذلك شأن أعداء الإسلام مع المسلمين ، يدركون تماماً أنَّ تمسك المسلمين بمنهج الإسلام خطر أى خطر عليهم وعلى مخططاتهم المعادية للإسلام ، كما يدركون أن ابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام فى الحياة وانفلاتهم من آدبه وأخلاقه هو الأمن والراحة والاستقرار لهؤلاء الأعداء .

وعلى سبيل المثال : فإن الدولة العثمانية فى زمن مبكر ، فكرت فى أن تضع قانوناً تعالج فيه شئوناً إدارية ثلاثة هى : -

١ - السكة (العملة أو النقد) .
٢ - اللباس والزى .
٣ - الجيش .

وهى من الأمور الجزئية التفصيلية التى يجوز للحاكم فى الإسلام أن يتخذ لها من النظم ما يلائمها بحيث لا يخالف شيئاً من الكتاب والسنة ، على الرغم من أن هذه المحاولات فى وضع هذه القوانين لا يدل أبداً على خروج الدولة عن مصدرى الشريعة الأساسيين وهما الكتاب والسنة ، إلا أن بعض المستشرقين يرون فى هذه المحاولة فرصة يتهجمون فيها على الكتاب والسنة . ويزعمون أنهما غير كافيين لتنظيم الحياة ولا شاملين لمتطلباتها ، فيقلبون بذلك الأمور ، وبدلاً من أن يوجهوا النقد لأسلوب التطبيق إذا بهم يوجهونه إلى الشريعة الإسلامية نفسها .

وهذا هو المستشرق : كارل بروكلمان - وهو مَنْ هو فى نظر الباحثين والدارسين مسلمين وغير مسلمين - يقول فى كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» ما يعد تهجماً على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يقول : «وكان المفروض فى قانون المملكة الشرعى أن يستند - نظرياً على الأقل - إلى التشريع الإلهى الذى جاء به القرآن ، وإلى السنة كما تُصورها أحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) الشفهية ليس غير .... ومهما يكن من شىء ، فلما كان هذان المصدران أنفسهما لا يحيطان بمشكلات الحياة كلها ، هذه الحياة التى تعقدت أكثر من ذى قبل ، والتى انتهت إلى أن تنهض على أسس اقتصادية تغاير الأسس القديمة بالكلية ، فقد تعين على الدولة أن تعترف - علاوة على الشرع الالهى - بقانون جديد يقوم على دعائم زمنية خالصة ، ذلك بأن هذا

الشرع الإلهي كان حتى ذلك الوقت أصلب من أن يجرؤ أحد على تكييفه وفقاً للأحوال الجديدة ... وهكذا نشأ القانون عند العثمانيين»[1] .

وهكذا ينتهز بروكلمان هذه الفرصة ليهجم على الإسلام ويتهمه بالجمود ويرحب بهذا الجمود ، ويفترى على الله الكذب حين يزعم أن الشرع الإلهي غير مستوعب لمشكلات الحياة .

ولم يكن بروكلمان وحده فى هذا التهجم والاتهام ، وإنما يشاركه فى ذلك كثير من الأعداء مبشرين ومستشرقين .

ولا تستطيع أوروبا أن ترى الدولة العثمانية منتصرة فى حروبها حتى تتجمع وتتحالف لتقف فى وجه هذه الانتصارات ، فما إن تتوالى انتصارات الدولة العثمانية فى القرن الثامن الهجرى حتى يعلن البابا بونيفاسيوس التاسع حرباً صليبية ضد المسلمين يحشد لها ويدعو إليها ، فيجتمع جيش كبير قوامه عساكر البلدان الأوروبية الغربية بقيادة «سيجموند» ملك المجر ، غير أن جيوش بايزيد استطاعت أن ترد هذا الكيد وأن تقضى على هذا الجيش عند نيقوبوليس فى السابع والعشرين من أيلول سنة ١٣٩٦ م .

وقد اتخذ أعداء الإسلام من التهجم والحقد على الدولة العثمانية فرصة للتهجم على الإسلام نفسه ، وفرصة لمؤاخذة الإسلام نفسه على كل خطأ ارتكبه حاكم مسلم ، حتى عندما يهمل العثمانيون التبحر فى العلم والبحث والاختراع ، ويكتفون بالاتباع والتقليد ، يعد الأعداء هذا الخطأ خطأً فى الإسلام نفسه ، هذا ما يردده كارل بروكلمان – الحجة الثقة فى نظر كثيرين من المسلمين – حيث يقول : «كانت حياة العثمانيين العلمية خلواً أو تكاد من الأصالة والإبداع ، فهى تتخذ سبيلها فى مجارى التقليد والاتباع الثابتة ، ذلك

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤١١ ترجمة : منير البعلبكي وآخر .

أن العلم لم يكن يعني عند المسلم(!!!) اكتساب معرفة جديدة بل التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التي أنتجتها الأجيال السالفة ...»[1]

وهذا باطل ليس كمثله باطل ، فمن ذلك الذى استقصى طبيعة كل مسلم وفحص نظرته إلى العلم ، حتى يخرج علينا بهذه المجازفة الصارخة والافتيات الحاقد عندما يقرر أن العلم لم يكن عند المسلم اكتساب معرفة جديدة ؟ وأين يذهب بروكلمان ، بالبحوث والمكتشفات العلمية التى ابتكرتها عقول المسلمين والتى اعترف بها كثير من الأوروبيين أنفسهم ؟

ولم تزل دول أوروبا تعمل ، تتحالف سراً وجهراً حتى استطاعت بوسائل عديدة أن تضعف الدولة العثمانية وأن تنتقص من أطرافها ، وأن تؤلب عليها مزيداً من الأعداء وأن تدخل معها فى حرب سافرة ضارية حاقدة ، ففى كل بقعة مما كان تحت نفوذ الدولة العثمانية من أوروبا أو البلدان الإسلامية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، عملت أوربا على أن تثير القلاقل وتوقد الفتن ، وتساند الثورات وتغذى الخلافات ، حتى استطاعت بهذه الوسائل الخبيثة والحرب القذرة أن تقلص نفوذ الدولة العثمانية من أوربا ومن آسيا ومن مصر ومن غيرها من البلدان التى كانت تابعة لها ، فبعض هذه البلاد التى كانت تابعة للدولة العثمانية كانت تجد التشجيع من الدول الأوروبية على الانفصال عن الدولة العثمانية ، وبعضها كانت تقتنصه إحدى دول أوربا المستعمرة ، ونستطيع القول بأن انجلترا وفرنسا وإيطاليا قد تقاسمت العالم العربى ، ومعظم العالم الإسلامى الذى انحسر عنه ظل الدولة العثمانية .

ثم كانت الخاتمة بتلك المؤامرة التى حيكت لتقضى على دولة الخلافة قضاء كاملاً على يد مصطفى كمال عندما أعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٣ م وانتخب رئيساً لها ، وقد غمرت الفرحة الأوروبيين عموماً ، وأعداء الإسلام على وجه الخصوص إذ وجدوا ثمرة غرسهم قد نضجت وحان قطافها ، من أجل هذا

---

(١) السابق : ٤٨٢ .

لا تجد كاتباً أوروبياً مؤرخاً أو غير مؤرخ إلا وهو يثنى على مصطفى كمال ويشيد بأعماله الجليلة .

يقول فى ذلك «كارل بروكلمان» : «ووطن مصطفى كمال نفسه على أن يسير بالدولة التى أنشأها فى طريق الحضارة الأوروبية ، وهى طريق تقتضى السائر فيها أن لا يقف ليلقى أيما نظرة إلى الماضى الإسلامى ، لأن مثل هذا النظر خليق بأن يعوق صاحبه عن بلوغ الغاية»[1]

ولم يكن أحلى فى سمع أعداء الإسلام ولا أحسن وقعاً فى قلوبهم من أنباء مصطفى كمال الذى تنكر للإسلام بعد أن جمع الناس حول ما يدعو إليه بالإسلام نفسه ، والذى أحل كل أوروبى غربى محل كل ما هو إسلامى ، ولنستمع إلى كارل بروكلمان وهو منتشٍ بهذه الأنباء يسجلها وكله زهو بمصطفى كمال حيث يقول : «هذه الثورة التى كان على الأتراك أن يواصلوا استئصال خلاياها المفردة من طريق المحاكم الاستثنائية (يقصد ثورة الأكراد التى قامت احتجاجاً على إلغاء الحكم التركى للخلافة) حدت بحكومة مصطفى كمال إلى أن تخطو خطوات جديدة نحو صبغ الدولة بالصبغة المدنية - والواقع أن وزارة الأوقاف كانت قد ألغيت قبل ذلك فى الثانى من آذار سنة ١٩٢٤ م ، وفى يونيو سنة ١٩٢٥ م حرمت جميع الطرق الصوفية ، وفى سبتمبر من نفس العام أغلقت زوايا الدراويش جميعاً ، وقضت الحكومة فى قسوة وعنف على كل نقد دينى لتدابيرها ، وفى سنة ١٩٣١ م وسنة ١٩٣٢ م ذهبت إلى أبعد من ذلك فحددت عدد المساجد ، ولم تسمح بغير واحد منها فى كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها خمسمائة متر ، كذلك خفضت عدد الواعظين الذين تدفع الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ ، وفرض عليهم أن لا يقصروا خطبة الجمعة على الأمور الدينية فحسب ، بل أن يضموا إليها فوائد علمية فيما يتصل بالشئون الزراعية أيضاً ، وأوصدت أبواب جامعين من أشهر جوامع استانبول فى وجه المصلين ، لتحول أولها - أيا صوفيا - إلى متحف وثانيهما - مسجد

(١) السابق ٦٩٥ .

الفاتح – إلى مستودع ، أما القانون الدينى – الشريعة – الذى كان حتى ذلك الحين معمولاً به فى صعيد العلاقات العائلية والزوجية فقد استبدل به قانون مدنى مستمد من القانون السويسرى ، وإنما أدى ذلك إلى القضاء نهائياً على تعدد الزوجات ... »[1] .

ثم يفيض السرور بل يطفح من بروكلمان وهو يتحدث عن أمله الذى تحقق وهو اختفاء المنهج الإسلامى من حياة الناس فى تركيا – لتحل محله الأنظمة الغربية والمدنية الغربية ويسمى ما قام به مصطفى كمال من تشويه حياة المسلمين فى تركيا اقتباساً من الحضارة الأوروبية ، فيقول : «واتخذت حركة اقتباس المدنية الغربية التى سعى إليها مصطفى كمال مظهراً خارجياً يرمز إليها فى قانون ٢٥ من نوفمبر ، الذى استبدل القبعة بلباس الرأس الوطنى السابق – الطربوش – وما هى إلا فترة حتى فرض اللباس الأوربى على طبقات الشعب جميعاً ...

ولكن مصطفى كمال لم يكتف بتكييف شعبه هذا التكييف الخارجى وفقا لعادات الغرب ، بل طمع أن يشربهم روحاً أوروبية أيضا ، ولم يكن بد لبلوغ هذا الهدف من اطّراح الأحرف العربية .. »[2] .

وهذا ما يطمع فيه أعداء الإسلام ، أن تغزو المدنية الغربية أفكار المسلمين وأن تكون ملبسا لأجسامهم وغطاء لرؤوسهم وأن يشرب المسلمون روح المدنية الغربية وأن يصبح من الضرورى اطّراح الأحرف العربية لغة القرآن الكريم .

هذا هو الغزو الفكرى وتلك هى التيارات المعادية للإسلام ، إن حرب اللغة العربية هدف كبير من أهداف أعدائنا لأن قتلها إبعاد للمسلمين عن القرآن الكريم أى إقصاؤهم عن سر نجاحهم وفلاحهم وهو تمسكهم بالإسلام

---

(١) السابق : ٦٩٨ .

(٢) السابق : ٦٩٩ .

ولنستمع مرة ثانية إلى حبيب الباحثين والدارسين من المسلمين – كارل بروكلمان – وهو سعيد سعادة غامرة باختفاء اللغة العربية من أصوات المؤذنين بالصلوات حيث أمرهم الطاغية أن يرطنوا الأذان بالتركية ، يسمى بروكلمان هذه الحماقة حرية فيقول : «ومن ذلك الحين صار المؤذنون أيضا يؤذنون للصلاة باللغة التركية ، ليس هذا فحسب بل إن الحرية الدينية أدت الى اعتناق عدد من الأتراك النصرانية سنة ١٩٣٢م ، وهو عمل كان القانون الإسلامى القديم يعاقب عليه بالقتل»[١].

ويعود بروكلمان ليسجل إعجابه بتركيا التى تركت الإسلام فيتحدث عن الفنون والآداب فيها فيقول : «وفى هذه الحقبة ازدهرت الفنون فى سرعة تدعو إلى الدهش بفضل الرعاية النشطة التى أحاطها بها رئيس الجمهورية بعد أن كانت مهملة إهمالا كاملا .. ووضع النحاتون الألمان أيضا أول تماثيل أتاتورك – وهو شاهد على النزعة الثقافية الجديدة إلى التحرر من العداء الإسلامى القديم للتصوير فنصبت فى ميادين المدن الكبرى كلها .. أما الموسيقى فقد كان معروفا منذ وقت طويل أن رئيس الجمهورية مصمم على أن يقود شعبه نحو آفاق جديدة فى هذا الميدان أيضا .. وفى سنة ١٩٣٤م أنشئت فى أنقرة مدرسة حديثة للموسيقى عهد فى إدارتها إلى «هندمث» و «بروبتوبرس» ابتغاء تكييف الموسيقى الغربية وتتريكها .. وفى ميدان الأدب كما فى ميدان الفن التجسيمى والتصويرى اتجه الأتراك وجهات جديدة خليقة بأن تنتهى بهم إلى ما يبتغون من تكييف ثقافتهم وفقا للثقافة الغربية ..»[٢]

وليس أسوأ فى التبجح والادعاء من أن يزعم بروكلمان أنه يستطيع التعبير

---

(١) السابق : ٧٠٣.

(٢) السابق : ٧٠٤.

عن مشاعر الشعب التركى وأنه يحس بإحساسهم ويعرف حاجاتهم إلى زعيمهم الوطنى الوفى العظيم مصطفى كمال عندما علم الناس بنبأ وفاته ، فكلفوا بروكلمان أن يعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم نحو هذا الزعيم العظيم ، يقول بروكلمان فى ذلك : «توفى أتاتورك فى استانبول وشعبه فى أمس الحاجة اليه ، أثر مرض متطاول ، تاركا للأتراك دولة مصونة من الخارج مزدهرة فى الداخل يدير شئونها رفيقه القديم عصمت إينونو بوصفه ثانى رئيس للجمهورية التركية .. »[1]

ولست أدرى من الذين كانوا فى أمس الحاجة إلى مصطفى كمال الذى مسخ الشخصية الإسلامية فى تركيا وقضى على الشخصية التركية نفسها ؟ أهو الشعب التركى ؟ أم أعداء الإسلام ومنهم بروكلمان ؟

ولعل من يتأمل تاريخ الدولة العثمانية كيف كانت وكيف صارت يدرك بدقة بالغة إلى أى حد تقوم عمليات الغزو الفكرى بعمل جليل فى إقصاء المسلمين عن الإسلام وعزلهم عن المنهج الأوحد الملائم لفطرة الناس وحاجاتهم الدنيوية والأخروية .

وكذلك كان الشأن فى أغلب البلاد الإسلامية فى هذين القرنين الأخيرين اللذين سبقا الوقت الذى نعيشه الآن ، انحسرت الموجة الإسلامية لتحل محلها الموجات الأجنبية بعامة والغربية بخاصة .

فنى مصر – كما يقول بروكلمان – «لم تعد أقدارها بعد احتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٨٨٢م مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصة بسائر الدول الإسلامية .. والحق أن مصر على ما اعترف به بعض الوطنيين المصريين

---

(١) السابق : ٧١٠ .

الحصفاء مدينة للإدارة البريطانية إلى حد بعيد جدا .. ولكن ثمة مجالا كبيرا للشك فيما إذا كان من الميسور أن يتحقق ازدهار البلاد وارتفاع مستوى سكانها الفكرى والمعنوى بمثل هذه السرعة التى تحققت بها فعلا لولا هذه الوصاية »[1]

يقرر بروكلمان هذا متناسيا – فى موجة حقده على الإسلام – ما قام به الحاكم المتوحش المتبربر كرومر وسلفه الظالم السير إفلين بارنج ، ومن جاء بعدهما مثل اللورد لويد والسير غورست وكتشنر وغيرهم . يتناسى بروكلمان ما قام به أولئك المتوحشون من أعمال غير إنسانية ، يندى لها جبين الحضارة الغربية والمدنية الأوروبية حيث مارسوا ضد شعب مصر أعمال العنف والتعذيب النفسى والجسدى والسخرة والظلم يتناسى الكاتب الحاقد ما قامت به بريطانيا من إعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤م وفرضها الأحكام العرفية وإعلانها الحرب على تركيا ، ويتجاهل كيف سلبت السلطة البريطانية الحكام المصريين كل سلطة لهم فى بلادهم ، وركزت كل تلك السلطات فى يد ظالم جلاد هو السير هنرى ماكماهون ، يتجاهل بروكلمان كل هذا لأنه يحقق له رغبته ورغبة أعداء الإسلام أمثاله ، فيشيد بموقف بريطانيا من مصر ذلك الموقف الذى أفادت منه مصر فى الإدارة .

وفى غير مصر من بلدان العالم الإسلامى كان الشأن كما كان فى تركيا ومصر حيث وجه أعداء الإسلام إلى البلدان الإسلامية حملات من الغزو الفكرى والتشويه لتاريخ المسلمين لإقصاء المسلمين عن دينهم ولتقريبهم من الحضارة الغربية حيث يذوب كيان المسلم وينماع ويصبح تابعا ذليلا حائرا لا يدرى من أمر يومه ولا غده ولا من أمر دينه ودنياه شيئا .

---

(١) السابق : ٧١٢ .

محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية

بين يدى الحديث عن محاولات تشويه الحياة الإسلامية ، نحب أن نتحدث عن مفهوم «نظام الحياة الإسلامية» فى عبارة وجيزة . وإنما رأينا ذلك من الضرورات لندفع به تهمة يوجهها أعداء الإسلام وأتباعهم من المسلمين أحيانا إلى الإسلام حيث يزعمون أنه لا يوجد نظام للحياة معروف فى الإسلام أو يزعمون أنه نظام غير صالح لكل زمان ومكان – إن اعترفوا بوجوده .

فما نظام الحياة المتكامل كما جاء به الإسلام ؟

نظام الحياة البشرية فى عمومه يتطلب مناهج شاملة متكاملة لمختلف شعب الحياة وأبرز هذه الشعب :

أولا : التربية الخلقية والنظم التربوية أهدافها ووسائلها ومجالات تطبيقها ، وما يترتب عليها من بناء فكر الفرد وخلقه وسلوكه .

ثانيا : الأسس الحضارية وما تشتمل عليه من نظم اجتماعية وسياسية ومدنية وعمرانية ينعكس أثرها على علاقات الناس بعضهم ببعض فى مجتمع تحكمه قيم أخلاقية معينة .

ثالثا : الأنظمة الاقتصادية التى تكفل إيجاد القواعد القوية المرنة للإنتاج . والتى تكفل أحسن الصور لتوظيف هذا الإنتاج وتوزيعه وتداوله .

رابعا : السلطة السياسية التى يجب أن تقدم على تنفيذ هذه الخطط ، وتتخذ من أجلها أفضل الوسائل لضمان استمرارها وتكيفها مع حاجات المجتمع

ومتغيراته المستمرة حتى لا تصاب واحدة من هذه الشعب بالجمود أو العجز عن الوفاء بمتطلبات الحياة الإنسانية .

وإذا كانت هذه الشعب المختلفة عندما ينضم بعضها إلى بعض ، يمكن أن تشكل نظاماً عاماً للحياة أو قانوناً عاماً لها ، فإن المسلم به بين المجتمعات البشرية ، أن لهذا النظام أو القانون هدفاً أساسياً ، هو تحقيق السعادة ، وما تتطلبه من أمن واستقرار وعمل وأمل لأولئك الذين يطبق عليهم هذا النظام .

فما هو النظام الإسلامي للحياة فى ضوء هذه المسلمات ؟

إن هذه الشُعب المختلفة التى تحدثنا عنها قد جاء بها الإسلام على أكمل صورة عرفتها البشرية من لدن كانت البشرية على الأرض ، وإذا كان فى كل شعبة من هذا الشُعب التى وضعها الناس فى مختلف عصورهم وأزمانهم ، فيها نقص هنا وقصور هناك ، فإن هذه الشُعب فى الإسلام ونظامه ، لم يعتورها شىء من نقص ، ولا لامسها شىء من قصور لسبب واحد هو أن هذه الشعب المختلفة لنظم الحياة من وضع الله رب الناس للناس عبيده ومخلوقيه ، ومن هنا جاء كمال هذه الشعب فى النظام الإسلامى وجاءت ملاءمتها لفطرة الله التى فطر الله الناس عليها .

وأما ما يثار حول هذه الشعب فى النظام الإسلامى من اعتراضات تتخذ من فشل هذه الشعب مستنداتها وأدلتها وتوجه من أجل هذا الفشل اتهامات للإسلام نفسه ، فإنها اعتراضات واهية ومستندات أوهى وأوهن من بيوت العنكبوت . ذلك أن الخطأ فى التطبيق وأساليبه وليس فى النظرية والمبدأ .

وقد نجحت هذه الأنظمة فى فترات غير قصيرة من التاريخ فى أن تجعل من المسلمين خير أمة من الناس ، يوم أحسن المسلمون تطبيق هذه النظرية والأخذ بمبادئ هذه الشعب والتزموا بها كاملة غير منقوصة .

أما عندما أخطأ المسلمون فى التطبيق أو أخذوا ببعض هذه المبادئ وتركوا بعضها فقد فشلوا فشلاً ذريعاً لا ينكره إلا مكابر .

وهذه الأنظمة أو تلك القوانين - كما يسميها بعض الناس - هى ما يسمى فى الإسلام بالشريعة . وشريعة الإسلام لها مصدر أصيل تنبع منه - هو القرآن والسنّة . ولها غاية تسعى إلى تحقيقها ، ولها خصائص تميزها عن سواها .

فمصدر الشريعة الإسلامية هو كتاب الله وتفسيره المعتمد المؤيد بالوحى المعصوم من الخطأ وهو سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المصدر العظيم قد طَبَّ فيه رب الناس للناس ما يصلحهم فى الدنيا والآخرة ، وتكفل الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم بأن يفسر هذا المصدر بأقواله وأفعاله وسيرته التى سار بها فى الحياة . وليس للشريعة الإسلامية من مصدر سوى هذا الكتاب وشرحه .

وأما غاية الشريعة الإسلامية التى تسعى إلى تحقيقها فهى إقامة المجتمع الإنسانى المؤمن بالله المسلم نفسه لشريعته . القائم فى نظمه على المعروف المطهر من المنكر - والمعروف هو كل ما يصلح الناس أى يلائم فطرهم السوية . والمنكر هو ما يضر الناس وينحرف بهذه الفطر عن جادتها السوية . وليس الخير والشر فى حقيقتهما إلا ذلك المعروف وذلك المنكر - على الصورة التى توافق الفطرة السوية فتسمى خيرا ، أو تخالفها وتنحرف بها فتسمى شرا .

وهذا المعروف فى نظر الشريعة أنواع ثلاثة :

١ - معروف فرضته الشريعة على الناس وأوجبته إيجابا لا فكاك فيه إلا لضرورة ملحة ولا حياة نقية نافعة للمجتمع إلا به .

٢ - ومعروف جعلته الشريعة مندوبا أو مستحبا ، يتفاضل الناس فى الالتزام به . وتعلو أقدارهم عند الله بالتزامهم ذاك ، وبهذا الالتزام تزيد نقاوة

الحياة وصفاؤها – ويسعد المجتمع وتسوده المودة والحياة الراشدة كلما زاد عدد المتمسكين بهذه المندوبات والمستحبات .

٣ – ومعزوف جعلته الشريعة من المباح الجائز الذى يمارسه الناس أو لا يمارسونه على حسب ما يريدون طواعية واختيارا .

وأما المنكر فنوعان :

١ – منكر حرمته الشريعة وحظرته على كل مسلم وهو كل ما يتضمن ضرراً أو شراً ظاهراً أو خفياً يلحق بالمسلمين . وما حرمته الشريعة واضح بيِّن .

٢ – منكر جعلته الشريعة من المكروهات ، وهو كل ما أظهر الشارع الحكيم كراهيته صراحة أو كتابة مما فى اجتنابه مصلحة للفرد أو للجماعة ، ومن هذه المكروهات ما يقرب أحيانا من حد الحرام ولكنه لا يبلغه . وما يقرب من المباح ولكنه – كذلك – لا يبلغه ، ومن هذا المكروه ما يتذبذب بين هذا وذاك .

وأما الخصائص التى تتميز بها الشريعة الإسلامية فهى كثيرة نعد من أبرزها :

١ – الشمول والاحاطة :

فما من عمل يعمله الإنسان أو قول يقوله إلا والشريعة الإسلامية قد اتخذت منه موقفا بعينه ، تأمر به أو تنهى عنه أو تندب إليه أو تكرهه ، أو تجعله من المباحات . ومن هنا كانت الأخلاق والعادات والأعمال صغيرها وكبيرها مما تعنى به الشريعة الإسلامية أشد عناية ، حتى تلك الأمور التى يهتدى إليها الإنسان بفطرته كالأكل والشرب والنوم واللباس تضع الشريعة لها نظاما ، وتحدد لها حدودا وترسم لها أبعادا .

وما من علاقة تسود المجتمع بين أفراده ، أو المجتمع المسلم مع المجتمعات الأخرى إلا وضعت الشريعة لها نظاما وحددت لها آدابا .

وما من قضية تتصل بنظام الاجتماع الإنسانى من سياسة أو اقتصاد أو إدارة إلا وبينت الشريعة الإسلامية فيها الرأى الصائب والموقف السديد ، وهذا هو ما نعنيه بالإحاطة والشمول .

٢ - التكامل والترابط :

ونعنى بذلك أن الشريعة الإسلامية نظام متكامل لا ينقصه شئ ولم يفته شئ ، ولم يزد فيه شئ عن حاجة الناس ، وهى نظام لا يمكن أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضه ، لأنه كل متكامل لا يمكن الاستغناء عن شئ منه بحال ، ولا يستطيع نظام آخر من أنظمة البشر أن يحل محله أو محل بعضه أو يشاركه فى تحقيق مصالح الناس .

٣ - الواقعية وسهولة التطبيق :

ومعنى ذلك أن الشريعة الإسلامية نظام لا يعيش فى فراغ ، ولا يمعن فى الخيال وانما يتميز بالواقعية وسهولة التطبيق ، ولكنه يحتاج دائما الى سلطة سياسية تنفذه وتشرف على تطبيقه ، وهذه السلطة السياسية هى الدولة بكل مواصفاتها ، ويخطئ من يدعى أن الدين الإسلامى بمعزل عن الحياة وأشد منه خطأ وتخبطا من يدّعون أن آداب الإسلام ونظمه لا تحتاج إلى دولة أو سلطة سياسية تقوم على تنفيذ هذه الأنظمة والآداب .

٤ - الإيجابية والحركة المستمرة :

وتلك من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية ، فليس فى المجتمع المسلم المستظل بالشريعة الإسلامية فرد أو جماعة من الناس ، يقبل منهم الإسلام

السلبية أو التواكلية أو الانعزالية ، وإنما كل فرد فى المجتمع المسلم له عمله وعليه واجباته ، لا يتسامح معه فى شئ منها إلا إن كان صاحب عذر من مرض أو عجز أو غيره .

٥ - وضوح الغايات ونبل الوسائل :

الشريعة الإسلامية تقوم على فكرة واضحة وتخدم غاية واضحة كذلك ، وتستند فى تحقيق ذلك على دستور أساسى تتحرك فيه كافة مؤسساتها ولهذا الدستور قوانين إدارية وقوانين للأحوال الشخصية وقوانين عامة .

فالفكرة الواضحة التى تقوم عليها الشريعة الإسلامية هى توحيد الله سبحانه والاعتراف به : الإله الواحد الأحد الخالق الرازق المحى المميت السميع البصير الرقيب المحاسب ، الذى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن ، هُدًى للناس يبين للبشرية طريق فلاحها ونجاحها ، ويحاسبها على الأخذ به أو تركه .

والغاية الواضحة التى تخدمها وتسعى إلى تحقيقها هى أن يعبد الله وحده فى الأرض ، وأن يعيش الناس فى هذه الدنيا ممارسين للمعروف آمرين به ممنوعين عن مقارفة المنكر ناهين عنه سواهم ، ليكونوا بذلك خير أمة أخرجت للناس .

والدستور الأساسى الذى تتحرك فى إطاره كافة المؤسسات الإسلامية هو القرآن الكريم وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهذا الدستور أى القواعد الأساسية للحكم شاملة محيطة كما أسلفنا .

والقانون الإدارى الذى تسير الدولة الإسلامية على هديه وتترسم خطاه هو ذلك القانون الذى يمكن أن نفهم قواعده الأساسية من حكومة الرسول صلى

الله عليـه وسلم وحكومات الخلفاء الراشدين من بعده ، وكان من فضل الله على المسلمين بخاصة وعلى البشرية كلها بعامة ، أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته معروفة مسجلة موثقة لم تدخلها شوائب تبدد جوهرها ولاران عليها من ركام التاريخ ما يخفى معالمها . ولا تقادمت بها الأزمان فأذهبت بهجتها – لأنه آخر الرسل – وليس من رسول ولا نبى قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلا وقد اكتنفت تفاصيل حياته وسيرته الأوهام والتراويق حتى ذهبت أو كادت معالم تلك السير من لدن آدم إلى عيسى بن مريم عليهما السلام وليس عبثا – وقد أراد الله للبشرية أن يكون خاتم الأنبياء محمداً صلى الله عليه وسلم – أن يهدى المسلمين إلى المحافظة الدقيقة الوثيقة على سنة خاتم الأنبياء وإنما كان ذلك لتكون حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته أنموذجا حيا متكاملا للحياة البشرية الراشدة فى ضوء الدستور الإسلامى الخالد .

وأما قانون الدولة العام وقوانين الأحوال الشخصية والقوانين الجنائية والمدنية وغيرها من القوانين والنظم التى تتطلبها حاجة المجتمع ليعيش فيه الناس فى أمن وعدالة ، فإن الشريعة الإسلامية فيها من هذه الأحكام التفصيلية ما يفى بتحقيق هذه الحاجات .

وأروع ما فى الشريعة الإسلامية فى هذا المجال أن القوانين التى وضعتها – لتلائم كافة متطلبات الحياة ومختلف متغيرات الاجتماع البشرى – قد انقسمت من أجل هذه الملاءمة المستمرة لكافة المتغيرات – إلى قسمين :

الأول منها :

قسم ثابت قطعى لايتأثر بتغير الزمان والمكان والناس وهو يتمثل فى الأمور الثلاثة التالية : –

١ - الأحكام القطعية الصريحة الواردة فى الكتاب والسنة الصحيحة ، كحرمة الزنا والخمر والميسر والربا . وكأنصبة الورثة من مورثهم . وكالحدود - وهى العقوبات المقدرة على جرائم بعينها كحد السرقة وحد الزنا وحد القذف وما إلى ذلك .

٢ - الضوابط العامة التى لايجوز لمسلم أن يتجاوزها فى تصرفاته وأعماله . كحد عدد الزوجات بأربع ، وحد الطلاق بثلاث مرات . وحد الثلث للوصية وغير ذلك .

٣ - القواعد العامة التى يعرف بها الحلال من الحرام مثل حرمة كل شئ مسكر وحرمة كل بيع لايتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض منهما . ومثل قوامة الرجال على النساء .

فهذا الجانب من القوانين الإسلامية ثابت راسخ لاتؤثر فيه المتغيرات . ولا اختلاف الزمان والمكان .

والثانى من هذين القسمين :

قسم متغير متطور يخضع للمتطلبات الآنية فى كل زمان ومكان . وهذا القسم يتمثل فى الأمور التالية : -

١ - تفسير الأحكام أو تأويلها من لدن رجال الفقه الإسلامى ، بحيث يسوغ هذا التفسير اليوم ، وربما يسوغ غداً . مادام التفسير مؤيدا بالقرائن والدلائل . وهو باب اتسع ومايزال يتسع فى مختلف العصور التى مرت على المسلمين .

٢ - القياس - وهو تطبيق حكم شرعى ثبت فى قضية ما ، على قضية أخرى تماثل تلك القضية - أو قياسها عليها ، وهو باب رئيسى فى هذه القوانين المتغيرة المتطورة .

٣ - الاجتهاد - وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة فهما دقيقا واعيا ، ثم

تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر فى السابق .

٤ – الاستحسان – وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة تحقق مصلحة عامة المسلمين جميعا . أو مصلحة عامة لبعض الأفراد منهم ، بحيث لاتتعارض تلك المصلحة مع شئ من قواعد الإسلام وأصوله وروحه .

وهذا القسم المتغير المتطور هو الذى يتيح لأهل الرأى وأصحاب الحل والعقد من المسلمين أن يضعوا من النظم والقوانين لكل عصر مايناسبه ، ولكل زمان مايليق به ، متجاوبين فى ذلك مع مصالح المسلمين المتجددة المتغيرة .

هذا هو نظام الحياة الإسلامية فى عرض موجز سريع قصدت من ورائه أن يعرف من لايعرف من أعداء الإسلام والحاقدين عليه صورة تقريبية لتنظيم الإسلام للحياة البشرية تنظيما دقيقا محققا لسعادة الدنيا والآخرة .

فكيف حاول أعداء الإسلام تشويه هذا النظام ؟

وكيف أرادوا عن طريق الغزو الفكرى أن يباعدوا بين المسلمين وبين نظام الحياة الإسلامية ؟

وكيف استهدفوا من وراء ذلك عزل دستور المسلمين وكافة قوانينهم المنبثقة من هذا الدستور ؟

إن التهم التى وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة وإنها لحملات تشويهية منظمة . نستطيع – على سبيل التقريب – أن نحصرها فى خمس تهم هى فى ظننا أبرزها وأخطرها وهى : –

أولا : اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم .

ثانيا : اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية وأنها كانت صالحة للعصور الوسطى – أى عصور التخلف والظلام – وحدها .

ثالثا : اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ تعتمد على وحشية أو همجية أو قسوة ، وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد .

رابعا : اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها فى عصر من العصور .

خامسا : اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير المسلمة فى ظل الدولة الإسلامية .

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من غير المسلمين ، وشاركهم فى إطلاقها بعض المسلمين ، وهؤلاء وأولئك بإطلاق هذه التهم إنما يقومون بعمل منظم - فيما أتصور - مرسومة له أبعاده وأهدافه - فيما اعتقد - وليس من ورائه كما أسلفت إلا تشويه النظام الذى اختاره الإسلام للحياة الإنسانية ، لتنعزل بذلك الأمة الإسلامية عن دينها وعن منهجها فى الحياة .

ولنناقش هذه التهم واحدة واحدة لنتبين وجه الخطر فيها من جانب ، ولنرد عليها من جانب آخر .

أما أعداء الإسلام من الأجانب عنه ، فإنهم اتهموا القوانين والنظم الإسلامية التى ترسم للحياة البشرية صورها وأبعادها ، بالرجعية والعجز عن مواكبة ركب التحضر ، لعلمهم ، بل ليقينهم بأن المسلمين يوم يُخَلَّى بينهم وبين الأخذ بقوانين الإسلام ونظمه ، فإنهم يصلون بهذه البشرية الى الرشد والهداية ، وهم بذلك قاضون على أحلام هؤلاء الأعداء فى الاستمرار فى امتصاص رحيق الحياة من البلدان الإسلامية عن طريق استغلال خبراتها ومقدراتها الاقتصادية ، وما استيقن هؤلاء الأعداء من تلك الحقيقة - وهى حيلولة الإسلام بينهم وبين استغلال الناس وظلمهم إلا بما شاهدوا فى تاريخ المسلمين ، يوم كان القانون الإسلامى والنظام الإسلامى يشق لهم طريق الفتح والتعمير والترشيد لأبناء البشرية جميعا .

وربما يقال : إن ذلك كان يوم كانت بين المسلمين وأعدائهم صولات

وجولات فى ميادين القتال ، أما اليوم فقد وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين !

والحق أن الحرب لم تضع أوزارها بعد . وأن مخططات الأعداء ماضية فى طريقها آخذة فى كل يوم وسيلة من وسائل الحرب ، ويخطئ من يظن أن أعداء الإسلام قد كفوا عن الكيد له ولأبنائه ، ولقد ورث الأخلافُ عن الأسلاف من أعداء الإسلام والمسلمين كراهية الإسلام والحقد عليه من يوم دارت تلك الحروب بين المسلمين وأعدائهم فى المعارك التى أطلقوا عليها «حروب العصور الوسطى» ويوم ذاق فيها أعداء الإسلام من المسلمين مرارة الهزيمة ورأوا بأعينهم كيف يصنع الإسلام بالناس إذ يحررهم من التبعية ويمكنهم من النصر على الأعداء .

هؤلاء الأعداء من الأجانب عن الاسلام حينما أطلقوا هذه التهمة كان – ومايزال – هدفهم أن ينظر المسلمون إلى قوانين الإسلام ونظمه نظرة من لايثق فيها ولايعمل بها ، فيُضحي المسلمون وقد جردوا من أمضى أسلحتهم وحيل بينهم وبين أحسن ماميزهم الله به ، فلا يبقى أمامهم والأمر كذلك إلا أن يذوب كيانهم ولايجدون من شرعهم ونظامهم مايجمعون عليه أمرهم أو يلمون به شعثهم ، وعندئذ يضعفون ويصبحون لقمة سائغة للآكلين ، وهذا الذى حدث ولايزال يحدث لكثير من البلدان الإسلامية التى تركت نظام دينها وقوانين دستورها الخالد .

وأما أعداء الإسلام من المنسوبين إليه بالاسم والرسم . فإنهم اتهموا النظم الإسلامية بالرجعية – لما رأوا من سوء التطبيق . ولما شاهدوا من أعمال من ينتسبون إلى الإسلام ولايعملون بقوانينه ونظمه ، وربما لما وقع عليهم من ظلم هؤلاء المنحرفين عن القوانين الإسلامية – هذا إذا استبعدنا أن بعضهم أتباع لأعداء الإسلام من الأجانب عنه يرددون عنهم مايسمعون دون وعى تقربا إليهم وإلى حضارتهم وإلى مايمنحون – وهم أصحاب النفوذ – من أثمان على

هذه المجازاة ، وربما أطلق بعضهم هذه التهم لما شاهدوه وانخدعوا به من بريق النظم الغربية وشكلياتها ومايتشدق به الداعون إليها من كلمات جوفاء حول الحرية والمساواة والعدالة مما يستهوى الغارقين الغافلين– وربما انخدعوا بما يردد هؤلاء الأعداء من حرية المرأة ومساواتها بالرجل ومن حرية شرب الخمر والشذوذ الجنسى فضلا عن حرية الزنا والبغاء والميسر والربا ، وهى أمور تستهوى أصحاب الأهواء وطلاب المتع الرخيصة .

ووجهة هؤلاء فى إطلاق تلك التهمة هى أن يتخلصوا هم من التمسك بنظم الإسلام وقوانينه ، لأن تلك النظم والقوانين لاتتيح لهم من شهوات أبدانهم وأهواء نفوسهم إلا فى إطار ما أحل الله وهو الصورة الراشدة للإنسان الذى كرمه الله وفضله على كثير مما خلق .

وأما اتهامهم للقوانين الإسلامية بالمحلية والإقليمية فمعناه أنها قوانين ونظم لاتلائم إلا العصر الذى وضعت فيه والناس الذين عاصروا وضعها ، وهو أمر تحدثنا فيه عند حديثنا عن اتهامهم للقرآن الكريم بالمحلية والإقليمية وقد أوضحنا هناك فساده وبطلانه بما لانحب أن نعيده هنا ، وإنما نكتفى هنا بأن نقول : إن القرآن الكريم وما تفرع عنه من نظم وقوانين ، استطاع فى الماضى ، وهو قادر فى الحاضر والمستقبل ، على أن يمد البشرية كلها بأمثل نظام للحياة وأقربه إلى فطرة الناس التى فطرهم الله عليها .

وأما اتهامهم للنظم الإسلامية للحياة ، بأنها عند التطبيق تتضمن وحشية أو همجية فيما يتصل بإقامة الحدود الشرعية من قطع يد السارق ورجم الزانى وجلد شارب الخمر وما إلى ذلك ، فهى اتهامات ضالة مضلة تقوم على الافتيات والمغالطة .

ولنا أن نتساءل قائلين : أين الوحشية والهمجية ؟ أهى فى إقامة هذه الحدود لردع المرتكبين وزجر العصاة وتحقيق الأمن والسعادة للناس ؟ أم أن الوحشية والهمجية فى تعطيل هذه الحدود ومايترتب على هذا التعطيل من

تشجيع العصاة والمجرمين ، وحرمان الناس من أكبر نعمة وأهمها وهى نعمة الأمن والاطمئنان ؟

أمن الوحشية أن تقام الحدود التى شرعها الله لإصلاح الناس ؟

أم الوحشية والهمجية أن تعطل هذه الحدود فيتجرأ المنحرفون وتعجز الدولة - أى دولة - عن حماية الناس - ، فيخاف الناس ويردعون ، ويعجزون حتى عن حمل المال فى جيوبهم ، فضلا عما يعانيه أى ضعيف أو صغير من ذل وخوف من أى قوى أو كبير ؟

أين الوحشية والهمجية على وجه الحقيقة ؟

أهى فى إقامة الحدود أو فى غيبتها ؟

هل الوحشية فقط فى تطبيق الحدود على المجرمين أعداء المجتمع ؟

ولاوحشية ولاهمجية عندما يعامل أصحاب الرأى والفكر السياسى بأقصى ألوان التعذيب البدنى من ضرب وحرق ونهش للحم وتمزيق للأجساد بوساطة الآلات والكلاب المسعورة والصدمات الكهربائية ؟

أمن الوحشية والهمجية أن تقام حدود الله ؟ وليس من الوحشية والهمجية إذلال الإنسان وتعذيبه بخلع أظافره وإحراق جسمه وتسليط الصدمات الكهربائية على مخه وأعصابه . وعصب رأسه بطوق حديدى يقضقض عظمه ، وكيه بالنار وقلع شعره والعبث بكرامته وآدميته ، كما يتعرض لذلك المعارضون فى الرأى والسياسة فى البلاد التى تتشدق بالحريات والديمقراطية والاشتراكية والشيوعية ، وتتباهى بقوانينها ونظمها ؟

من حقنا أن نتساءل هذه التساؤلات ، ومن حق الأجيال المسلمة الحاضرة والآتية أن تعرف أنها بالإسلام غنية بأحكم نظام للحياة البشرية وأكمل تشريع يحفظ على الإنسان كرامته وآدميته ..

وأما اتهامهم للقوانين الإسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها فى عصر

من العصور فإنهم بذلك يغالطون ويضللون ولاينطلى باطلهم ذاك على عاقل من الناس ، وهناك فارق كبير ماينبغى أن يخفى على عالم أو عاقل بين دستور الإسلام وقانونه الأساسى – وهو الكتاب والسنة الصحيحة – وبين ما اتفق عليه الفقهاء المسلمون فى عصر من العصور من النظم والقوانين التى فسروا بها حسب ظروفهم وملابسات زمانهم ذلك الدستور الإسلامى الأصيل – وهو الكتاب والسنة – فمن الواضح أن التفسير والتأويل للكتاب والسنة فى كل عصر من العصور أمر يتناوله الفقهاء ويتداوله العلماء ولاحرج فى ذلك عليهم ولاغبار ماداموا قد اجتهدوا وسددوا وقاربوا ، فعندنا الآن شيئان :–

١ – الكتاب والسنة فى كل عصر من العصور .
٢ – واجتهادات الفقهاء فى كل عصر من العصور .
فأى هذين لم يحظ بإجماع المسلمين ؟

إن قالوا : إنه القرآن والسنة النبوية فهم فى غى يعمهون ، وهم كذبة مفتاتون ، لن يستطيعوا أن يسندوا باطلهم ذاك بأدنى دليل أو أوهى برهان . فلم يحدث على مدى الأربعة عشر قرنا التى عاشتها البشرية فى ظل القرآن الكريم والسنة النبوية أن اختلف المسلمون على نص القرآن أو على نص السنة الصحيحة ، بل لم يحدث غير الإجماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتى بين المختلفين من المسلمين .

وإن قالوا : إنها آراء الفقهاء واجتهاداتهم وتفسيرهم للكتاب والسنة ، بمعنى أنه لم يحدث إجماع من المسلمين على القوانين والنظم التى أخرجها الفقهاء من نصوص الكتاب والسنة ، إن قالوا ذلك فإنه لايضير النظم الإسلامية فى شئ ولايدل على عيب أو قصور فى تلك النظم ، بمقدار مايدل على حرية الرأى ونضج الفكر والقدرة على الانطلاق فى تفسير النصوص دون تبعية بل لانبالغ حين نقول : إن المآخذ التى تؤخذ على بعض المسلمين فى بعض

العصور أنهم قلدوا وتابعوا من سبقهم فى تفسير النصوص الإسلامية دون أن ينظروا فى متطلبات عصرهم ومقتضيات ظروفهم .

وأما اتهامهم للقوانين والنظم الاسلامية بأنها تتجاهل حقوق الأقليات التى لاتنتسب إلى الإسلام فتحرمهم من حقوق ولا تسمح لهم بممارسة الحياة الإنسانية فى ظل الكرامة الجديرة بالإنسان ، تلك التهمة التى اتخذها أعداء الإسلام ذريعة إلى احتلال كثير من البلدان الإسلامية فى فترات ضعف المسلمين ، وهى تهمة باطلة يكذبها التاريخ المعروف للمسلمين يوم كانوا يحكمون بلادا فيها أقليات غير مسلمة ، بل التجاهل الحقيقى للأقليات بل سحق هذه الأقليات إنما هو موجود فى الدول غير المسلمة التى توجد بها أقليات مسلمة ، والتاريخ المعاصر يمدنا بعشرات الأدلة والبراهين .

أما فى ظل الحكم الإسلامى فقد كان للأقليات غير المسلمة من الحقوق المدنية مايكفل العيش الكريم ، إذ واجب الحاكم المسلم والدولة المسلمة أن يحافظوا لهذه الأقليات على أعراضهم وأموالهم وحرياتهم الشخصية وكل ماتقوم به أو عليه الحياة الإنسانية الجديرة بالإنسان ، وكل ماتحرم منه هذه الأقليات فى ظل النظام الإسلامى هو تولى المناصب العامة فى الدولة المسلمة .

فالإسلام ينظر إلى غير المسلمين فى الدولة المسلمة على أنهم مواطنون لا أقليات ، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ماتستوجبه المواطنة فى ظل النظام الإسلامى[1] .

وإذا أراد مغالط أن يتحدث عن الجزية التى تأخذها الحكومة المسلمة من أهل الذمة الذين يمثلون الأقليات فيها - فإنها وإن كانت فى الحق ضريبة لإخضاع أهل الذمة إلا أنها تدخل فى نطاق ضريبة الأمن والدفاع ، وهى

---

(١) للمؤلف بحث بعنوان : مع الفكرة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس توسع فيه فى الحديث عن هذا الموضوع

مورد هام من موارد الدولة الإسلامية ، بل هى ضريبة يدفعها الآن جميع المواطنين فى أغلب البلاد إسلامية وغير إسلامية .

فإذا عجزت الدولة الإسلامية عن تحقيق الأمن لهذه الأقليات أو عجزت عن الدفاع عنهم ردت إليهم ما أخذت من جزية حتى ولو كانت قبضتها منهم ، كما كتب أبو عبيدة الجراح رضى الله عنه إلى أمرائه أن يردوا إلى الذميين كل ماأخذوا منهم من الجزية ويقولوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فهذه أموالكم التى أخذناها لذلك ، تُرد إليكم ، فرد جميع أمراء الجنود كل ماكانوا جمعوه من الأموال »[1] .

وقد ذكر البلاذرى أثر رد هذه الجزية فى نفوس الذميين قال : فقال أهل حمص : «قال أهالى ذلك البلد بلسان واحد ، لدينكم وعدلكم أحب إلينا والله مما كنا فيه من الظلم والغشم» وقالوا : «والتوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد »[2] .

هكذا كانت تعامل الدولة الإسلامية الأقليات فيها ، أو معاملة الأقليات معاملة غير إنسانية فأمر تعرفه دول الحضارة الغربية حق المعرفة فى وقتنا هذا وفى غيره من الأوقات ، وتسأل عنه الأقليات الملونة فى أمريكا ، والأقليات المسلمة فى روسيا والأقليات المسحوقة المذابة ذوبانا فى أنظمة تلك الدول — تسأل عنها الأغلبيات المسلمة التى أجبرت إجبارا فى كثير من دول آسيا وأفريقيا على ترك دينها أو تضطهد حتى الموت ، تسأل عنها بعثات التبشير والتنصير فى الشرق الأقصى وفى أفريقيا ، هذه هى الأقليات المضطهدة فى ظل النظم الأوروبية التى تدعى الحضارة والتمدن ، بل تسأل عنها الأقليات المسلمة التى ذاقت الوبال والنكال على أيدى الأسبان فى أعقاب تفرق المسلمين هناك وذهاب ريحهم .

---

(١) أبو يوسف : الخراج : ١١١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان : ٧ط أوربا .

وبعد : فإن هذه التهم الموجهة إلى النظام الإسلامى للحياة الإنسانية : لم يطلقها أصحابها عبثا ، وإنما كانت وما تزال جزءا من خطة اختطوها بقصد تشويه نظام الحياة كما سنه الإسلام وكما أقرته نظمه .

وذاك نمط من الغزو الفكرى والثقافى ، ليس أقل خطرا على المسلمين من الغزو العسكرى المؤيد بوسائل الحرب وآلاتها التدميرية الرهيبة .

والهدف من كل ذلك واضح ، وهو تشويه الإسلام فى الأنظار لعزل المسلمين وغيرهم عن أن يهتدوا بهديه أو يعيشوا فى ظل دستوره وقوانينه .

محاولة تشويه التراث الإسلامي

كلمة التراث بمعناه الأجنبي «الأثرى» Legacy ليست داخلة فى المفهوم الذى نريده ، فى هذا البحث للكلمة ، لأن الكلمة بهذا المعنى الأجنبى تعنى – فى العرف الشائع لها عند الناس – شيئا موروثا ، ونحن لانوافق على أن الإسلام موروثات تتناقلها الأجيال ، بل هو دين حى خالد مواكب لكل جديد متطور من ألوان الحياة ومتغيراتها ، فضلا عن أننا معشر المسلمين لاينبغى أن نتصور أن الدين ينتقل إلينا بالإرث عن الآباء والأجداد .

أما المفهوم الذى نريده من كلمة التراث الإسلامى فى هذا البحث فهو تلك الثروة الفكرية التى أنتجتها عقول المسلمين فى مختلف مجالات المعارف والفنون ، وفى سائر ألوان الحضارة ومظارها ، مما انتقل إلينا عبر الأجيال ، وأقول : الثروة الفكرية فى مختلف الفنون والمعارف لأننى بادئ ذى بدء ذلك المفهوم القاصر الذى يحصر التراث فى الغالب فى المخطوطات الخاصة بالعلوم الإسلامية عقيدة وشريعة وسيرة وتاريخا وفلسفة ، وبعلوم اللغة العربية من لغة وبلاغة وأدب ، إذ التراث يشمل ما هو أوسع من ذلك بكثير ، يشمل كافة مجالات العلم والمعرفة من طب وصيدلة وكيمياء وعقاقير وفيزياء ، وفلك ورياضيات وهندسة وطرز متعددة للمبانى والعمائر ، ويشمل كذلك نظم الحياة المتعددة التى تميزت بها مختلف الشعوب التى دخلت الإسلام واتخذته دينا ومنهجا .

وهذا التراث بالمعنى الذى حددته تجب العناية به والاهتمام بالاستفادة منه ، لأن تلك العناية وهذا الاهتمام هو الذى يكشف عن الجذور والعناصر المكونة لأصالة المسلمين والمعبرة عنها أصدق تعبير فى عصورها الزمنية المختلفة ،

إذ أن هذا التراث بالنسبة لأمة من الأمم هو الأساس الراسخ الوطيد لحاضرها ومستقبلها .

وهناك ما أحب أن أنبه عليه فى هذه العناية الواجبة بالتراث ، هو التأكيد على أن العناية بهذا التراث ما ينبغى أن تقف عند حدود الإشادة والاعتزاز ، أو تمتد إلى التباهى والتفاخر ، لأن ذلك فعل الكسالى والعاجزين ، وإنما نريد أن تمتد هذه العناية لتشمل الإفادة من التراث فى تصور حاضر إسلامى ملائم ، ومستقبل للأمة الإسلامية أدعى لأن يضعها من جديد تحت مظلة الإسلام الشاملة المتكاملة .

وليس من التباهى ولا التفاخر أن نؤكد فى هذا البحث أن التراث الإسلامى - بالمعنى الذى حددناه - كان الركيزة القوية التى اعتمدت عليها أوروبا فى نهضتها العلمية الأخيرة ، بل ليس من المبالغة أن نقول : إن هذا التراث الإسلامى هو الذى رفد عصر إحياء العلوم فى أوربا والعالم الغربى كله ، فقد كانت العلوم والمعارف الإسلامية العربية تترجم باهتمام بالغ إلى عدد من اللغات الأوروبية ، فمن الثابت المؤكد أن الدولة الإسلامية بمعطياتها الحضارية المتعددة ظلت فى مجال القيادة للبشرية معظمها ، قيادة مادية ومعنوية حيناً غير قصير من الزمان ترفد الفكر والعلم والمدنية والعمران وتؤثر فى مسار الحياة الإنسانية تأثيرا ضخما غير منكور .

ولقد انتقل التراث الإسلامى الى العالم الغربى عبر الدردنيل والبحر الأسود وقزوين وصقلية وإسبانيا ، فكان له أبرز الأثر فى حركة إحياء العلوم فى أوربا تلك الحركة التى بدأ بها تاريخ النهضة الأوربية الحديثة .

وليس من الخفى أن انتقال الحضارة الإسلامية إلى العالم قد تم قبل عصر إحياء العلوم فى أوربا بزمن غير قصير ، عن طريق العلاقات السياسية والاقتصادية والحروب التى دارت بين الدول الإسلامية وبين العالم الغربى ، وليس خافيا كذلك أن الأوربيين قد انبهروا بتلك الحضارة الخصبة الشاملة

فنقلوا منها وعنها ماوسعهم النقل ، وهذه المعابر المتعددة التى انتقلت حضارتنا عن طريقها إلى العالم كله صادفت تلك الفترة الزمنية التى يدعونها فترة العصور الوسطى التى سبقت عصر إحياء العلوم فى أوروبا .

وإن أكثر من شاهد من أبناء الغرب ومفكريه يعترفون بذلك التأثير القوى الذى تركته الحضارة الإسلامية فى الغرب ، مما أضاء لهم طريق النهضة ويسر لهم سبيل إحياء العلوم ، نجد هذه الاعترافات على ألسنة مشاهير الكتاب – حتى المتعصبين منهم ضد الإسلام – من الأوروبيين ، ونود أن نذكر هنا من هؤلاء المعترفين : –

١ – هـ . ج . ويلز – فى بعض ماكتبه وبخاصة كتابه : معالم تاريخ الإنسانية .

٢ – وجوستاف لوبون : فى كتابه : حضارة العرب .

٣ – ودى بور .

٤ – وأوليرى .

٥ – وتوينبى .

فى بعض ماكتبوه ، وفى بعض ماكتبه سواهم .

وأغلب مانقرأ من كتب فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى نجد فيها أن الأمير فردريك أسس جامعة نابولى عام ٦٢٢ هـ/١٢٢٤م وجعلها مدرسة لنقل العلم العربى إلى العالم الغربى ، ونجد فيها كذلك أن جامعتى بولونيا وباروخا قامتا أساسا على الثقافة العربية وبخاصة فلسفة ابن رشد وطب ابن سينا .

وفى صقلية اعتمدت جامعة باليرمو – أقدم جامعة غربية – على الثقافة العربية بحيث حرص الأمير : ريجار «روجيرو» على استعارتها منها ، بل استقدم لها الأعلام من علماء العرب . وكان منهم الإدريسى الذى ألف لأمير صقلية كتاب :

«نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» هذه حقائق يعترف بها الأوربيون أنفسهم .

يقول «جوستاف لوبون» : «وأشهر جغرافى العرب هو الإدريسى ، ومن كتب الإدريسى التى ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوروبا علم الجغرافية فى القرون الوسطى»[1] .

ثم يقول بعد ذلك : «وكتب العرب التى انتهت الينا فى علم الجغرافية مهمة للغاية وكان بعضها أساسا لدراسة هذا العلم فى أوروبا»[2] .

وفى موضع آخر من كتابه السابق يقول عن علم الفلك عند العرب : «واليوم نعلم أن فلكيى الصين ولاسيما شوكنج ١٢٨٠م استنبطوا معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ، ولذلك نقول : إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك فى العالم كله فى الحقيقة»[3] .

ولم تكن الحضارة الإسلامية ذات أثر فى نهضة أوربا العلمية أو الصناعية فحسب ، وإنما تجاوز هذا التأثير النهضة العلمية الصناعية إلى الأخلاق الأوروبية حيث هذبت طبائعهم وعلمتهم العواطف النبيلة ، وهذا هو مسيو «بارتلمى سنت هير» فى كتابه عن القرآن يقول : «أسفرت تجارب العرب وتقاليدهم عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة فى القرون الوسطى ، وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم ، وأشك فى أن تكون النصرانية وحدها أوحت إليهم بهذا مهما بولغ فى كرمها»[4] .

وكل ما نأخذه على ما كتبه جوستاف لوبون أو ما نقله عن بارتلمى «سنت هير» فى هذا المجال الذى نقلنا فيه هذا النقول ، كل ما نأخذه عليهما أن الحق كان يقتضى كلا منهما أن يقول المسلمين بدل قوله العرب ، فوضع كلمة

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ٤٧٠ ترجمة عادل زعيتر . ط الحلبى القاهرة

(٢) السابق : ٤٦٩ .

(٣) السابق : ٤٥٩ .

(٤) السابق : ٥٥٦ - ٥٧٧ .

المسلمين بدل كلمة العرب يضفى على كلام كل من الكاتبين مزيدا من الحيدة والإنصاف .

وربما كان بعض المتعصبين من الأوروبيين – مبشرين ومستشرقين لا يحبون أن يعترفوا للحضارة الإسلامية بفضل على حضارة أوروبا أو لتراث المسلمين على أوروبا ، ولابد أن يكون من وراء هذا الإنكار سر وسبب ، ونحن نعرف سلفا أن هذا السر وذاك السبب هو الحقد على الإسلام والمسلمين .

ونحب هنا أن نوضح ذاك السر كما تحدث عنه جوستاف لوبون ، حيث يعلل لإنكار بعض الأوروبيين لفضل الحضارة العربية – كما يسميها لوبون وهى الحضارة الإسلامية كما نقول – على أوروبا ، فيقول : «لم ينكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار دينى كما يلوح ؟

ثم يجيب لوبون عن هذا التساؤل فيقول : «لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذى أسأل نفسى به أيضا ، وهو أن استقلالنا الفكرى لم يكن فى غير الظواهر بالحقيقة ، وأننا لسنا من أحرار الفكر فى بعض الموضوعات كما نريد ، فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصية العصرية التى كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية ، والشخصية القديمة غير الشاعرة التى جمدت وتحجرت بفعل الأحداث ، وكانت خلاصة لماض طويل ، والشخصية غير الشاعرة وحدها ، ووحدها فقط هى التى تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة وتملى عليهم آراءهم فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حرا فى الظاهر فيحترم .

والحق أن أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهابا ، عدة قرون وأنهم كانوا عندما لا يرعدوننا بأسلحتهم كما فى زمن «شارل مارتل» والحروب الصليبية ، أو يهددون أوربا بعد فتح القسطنطينية كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من

نفوذهم إلا بالأمس ، وتراكمت مبتسراتنا الموروثة ضد الإسلام والمسلمين فى قرون كبيرة ، وصارت جزءا من مزاجنا . وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفى أحيانا والعميق دائما ، وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مبتسرنا الموروث الذى زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة أن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب فى الزمن الماضى أدركنا بسهولة سر جحودنا العام لتأثير العرب العظيم فى تاريخ حضارة أوربا ، ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يرى أن أوروبا النصرانية مدينة لأولئك الكافرين فى خروجها من دور التوحش ، فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة .

ثم يواصل لوبون فيقول : «نختم هذا الفصل بقولنا : انه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى اعتنقت دينهم ، وأن العرب هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقى ، وأن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافى ، فكانوا ممدنين لنا ستة قرون»[1] .

هذا التراث الإسلامى المعلم الخصيب ، ما رعاه المسلمون حق رعايته ولا اهتموا به الاهتمام الذى يستحقه ، وإنما أصابه ما أصاب الدول الإسلامية من عوامل الضعف والتفكك ، فمنذ بعدت الأمة الاسلامية عن دينها ومنهجها تمزقت وتفرقت وذهبت ريحها وأصبحت دويلات مبددة الشمل طمع فيها عدوها وسهل عليه أن يزدردها واحدة واحدة ، وتوالت النكبات على العالم الإسلامى ، وأخذ ظله فى التقلص ورقعته فى الضيق ورجاله فى الضعف والتخاذل ، وما أصاب التراث ليس أقل مما أصاب أصحابه وصانعيه .

وقد أسهمت الحملات الصليبية المسعورة على مدى الفترة الزمنية التى استطاعت فى أن

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب : ٥٧٧ — ٥٧٩ .

توجه لهذا التراث من الضربات ما يبدده وتحاول القضاء عليه بإتلافه حينا والعبث حينا . حتى لم يفلت من أيديهم من هذا التراث إلا القليل .

وكذلك فعلت الخلافات السياسية والمذهبية التى عصفت بالأمة الإسلامية فعلها فى هذا التراث . فقد كان انتصار فريق على آخر أو حزب أو مذهب على مذهب كثيرا ما يصاحبه عدوان على كتب خصومهم وعلى تراثهم الفكرى والحضارى . عدوان يصل إلى حد الإحراق والإتلاف والتدمير ، وقد يتصور بعض الناس أن هذا الإتلاف لم ينل سوى كتب الخصوم وحدهم ، ولكن ذلك التصور غير صحيح - على الرغم من أن الإتلاف كان يأتى على الكتب كلها مذهبية وغير مذهبية ، فتكون الخسارة عامة والكارثة الحضارية شاملة . كما يحدثنا التاريخ عن مكتبة العزيز بالله ، وعن أغلب دور الكتب الفاطمية بمصر عندما لقيت أفجع مصير بسقوط الدولة الفاطمية .

وإن الجيوش المتوحشة المتبربرة الآتية مما وراء النهر فى أقصى الشرق بقيادة هولاكو لتكتسح أمامها كسيل جارف كل معالم الثقافة والحضارة فى بخارى ونيسابور والرى وأصبهان ، متجهة إلى بغداد مدمرة محرقة مغرقة لألوف الكتب والكنوز من تراثنا ، ولولا أن صدت هذه الغارة المتوحشة الجبهة الإسلامية الموحدة آنئذ من مصر والشام ، لقضت تلك الحملة على كل كنوز العلم والمعرفة ولضيعت إلى الأبد روائع التراث ولاكتسحت أمامها العالم الإسلامى حتى تصل إلى الطرف الغربى للعالم الإسلامى على ساحل المحيط الأطلسى .

وكذلك كان حال التراث الإسلامى عندما تضعضع أمر المسلمين فى الأندلس فأصبحت دولتهم دولا وأمتهم أمما وسقطوا فى أيدى أعدائهم واحدة وراء الأخرى ، فى أيدى الأسبان الذين ضربوا أفدح المثل فى العصبية الدينية والقوميات والعرقيات ، ووجهوا أحقادهم إلى صروح العلم والمعرفة يخربون ويدمرون . فأحرقوا خزائن الكتب ونفائس الذخائر العلمية ، بحيث لم يبق من هذا المجد العلمى الباذخ للمسلمين فى الأندلس إلا ما ذهب من قبل إلى

أوروبا أو إلى المشرق مع المهاجرين من المسلمين ، ومع طلاب العلم والتجار ، أو ما أفلت من هذه المقتلة بفعل الصدفة وحدها .

ومن عجب أن هذا القليل الناجي قد تكون من بعضه مكتبة تعد الآن من أشهر مكتبات أوروبا الحديثة التي تزخر بالمخطوطات العربية النادرة ، وهي مكتبة الأسكوريال بمدريد .

وكذلك كان الحال بالنسبة للمكتبات الهائلة التي كونها خلفاء بني عثمان (الدولة التركية العثمانية) وجمعوها بأساليب ربما لم تكن مقبولة في ذاتها ، فقد استطاع الغالبون المنتصرون على دولة الخلافة العثمانية أن يستولوا على هذه المكتبات سرقة أو غصبا وأن يعبروا بها إلى معابر الدردنيل والبوسفور إلى الغرب المتحالف على القضاء على دولة الخلافة .

ولم يكن حظ التراث الإسلامي في الظروف العادية – وقد أصاب العالم الإسلامي التخلف والضعف – بابتعاد المسلمين عن دينهم ومنهجهم ، بأحسن من حظه على أيدي الأعداء ، فقد هان عليهم أمر تراثهم وحضارتهم ، ونبتت نابتة من أبناء المسلمين – في العصر الحديث – تتهم هذا التراث بأنه يمثل عصوراً غابرة متخلفة ، وتحمل إلينا من القيم ما لا يلائم حياتنا المعاصرة ، ونبتت نابتة أخرى من المفتونين بالتقدم الصناعي الآلي في أوروبا تتوهم أن سر تقدم أوروبا هو إهمالها للماضي ، وأن سر تأخرنا نحن المسلمين هو اهتمامنا بهذا الماضي ، وعلى الرغم من ضلال الفريقين وسخف ما يقولون وضيق أفقهم وجهلهم بأن أوروبا الناهضة – في نظرهم – لم تنهض إلا باهتمامها بتراثها ، على الرغم من ضلال هذا الرأي ، فإن التراث الإسلامي تأثر بآراء هذين الفريقين وأصابه بعض الشلل وقل الاهتمام به إلى حد كبير .

لكن الأمل في عناية بعض الدول الإسلامية بالتراث كبير ، وقد أخذت بعضها تسعى في الطريق نحو الاهتمام به وإحلاله المكانة اللائقة به .

والجدير باهتمامنا في هذا البحث أن نتحدث عن أثر المستشرقين في هذا

التراث ، وما قاموا به من أعمال نحوه ، ونحب أن ننبه – من باب الإنصاف والحيادية فى إصدار الأحكام – إلى أن حركة الاستشراق فى جملتها خدمت التراث من جانب وخدمت أغراضاً سياسية تبشيرية استعمارية من جانب آخر .

ففى الجانب الأول : جانب خدمة التراث الإسلامى كان من المستشرقين الذين قاموا بالاهتمام بالتراث جمعه وتحقيقه ونشره من هو مخلص فى عمله راغب فى أن يحقق للإنسانية مكاسب وأرباحاً فكرية وحضارية – وهؤلاء قليلون – وكان منهم الحاقد على الإسلام والمسلمين الراغب فى التشويه والتحريف والإساءة ، وهؤلاء الأخيرون هم أو بعضهم موضوع بحثنا هذا ، إذ أننا نتحدث عن حملاتهم المنظمة لتشويه التراث الإسلامى .

وفى الجانب الثانى : جانب خدمة أغراض سياسية تبشيرية استعمارية عن طريق التراث ، كان الهدف هو دراسة هذا التراث والتعرف على معالم تلك الحضارة بقصد التعرف والكشف عن طبيعة عقليات الشعوب التى صنعت هذا التراث وتلك الحضارة من الأمة الإسلامية ، ومعرفة طبائعهم وأمزجتهم ومواضع الضعف والقوة فيهم ، ودراسة ما يسوءهم من عادات وتقاليد ، تمهيداً لشن الحملات السياسية عليهم سواء أكانت حملات تبشير بالنصرانية وتنصير لبعض المسلمين أو كانت حملات استعمارية للغزو العسكرى المسلح أو حملات احتلال اقتصادى وتسلط على مقدرات تلك الشعوب بالوسائل المعروفة فى ذلك الزمان ، وبخاصة فى آسيا وأفريقيا ، وعلى وجه الخصوص فى الشعوب المسلمة فى تلك البلاد .

ونحن عندما نربط فى هذا البحث بين الاستشراق والتبشير والاستعمار لا نبالغ ولا نعبر عن وجهة نظرنا وإنما ننقل عنهم أنفسهم اعترافات بهذا الرباط الوثيق بين الكنيسة والاستشراق والاستعمار .

ففى القرن السابع الهجرى أخريات القرن الثانى عشر الميلادى كانت حركة الاستشراق الأولى تابعة للكنيسة-الكاثوليكية وخاضعة لكبار أحبارها ، لا

تتحرك إلا بناء على توجيه منها . يقرر ذلك كاتب مسيحى مؤرخ هو : «الفيكونت فليب دى طرازى» حين يقول :

«راح البابوات فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر (م) يقرون قصادهم ورسلهم ورهبانهم بتعلم العربية ترويجاً لخططهم الكاثوليكية . وقرر مجتمع فينا المنعقد سنة ١٣١١ هـ برياسة البابا «إقليميس الخامس» أن تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية فى روما على نفقة الحبر الأعظم . وفى باريس على نفقة الملك ، فى اكسفورد وبولان على نفقة الرهبان ، وذلك لكى يكون منهم المبشرون والوعاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية وكان سفراء الفاتيكان مكلفين من قبل البابا بمراقبة دروس العربية . ويعدون من المآثر الباقية للبابا «لاون العاشر» أنه احتفل سنة ١٥١٤ م بافتتاح أول مطبعة عربية فى مدينة فانو على ساحل الأدرياتيك .

وقد جد رجال الكنيسة فى الحصول على كتب التراث الإسلامى ، فكانت بعثاتهم تطوف بالشرق الإسلامى من مصر والشام والعراق إلى ما وراء النهر والهند يشترون أندر المخطوطات ..

وتبارى اتباعهم من رجال «الإكليروس» الشرقى لإتحاف مكتبة الفاتيكان بنفائس الذخائر العربية ، وبلغ ما زود به الكاردينال «فردريك رئيس أساقفة ميلانو مكتبة الأمبروزيانا من ذخائر العرب ألوفاً عدة ، ثم جاء الأب «واتى» فأضاف إلى ثروتها من هذه الذخائر ستة آلاف مخطوط»[1] .

وأن المستشرق المشهور ليون كايتانى (١٨٦٩ - ١٩٢٦ م) الذى بذل الأموال الطائلة على طبع كتابه المعروف فى تاريخ حركة الفتح الإسلامى المسمى «حوليات الإسلام» ليعطينا الدليل على هدفه الحقيقى من تأليف كتابه : «حوليات الإسلام» ومن عمله فى التراث الإسلامى بصفة عامة

---

(١) دى طرازى : خزائن الكتب : ٢/٥٧٧ - ٥٨٠ .

وإنفاقه تلك الأموال الطائلة من أجل جمعه وتحقيقه ونشره ، نفهم ذلك من مقدمة كتابه ذاك ، حيث يقول فى المقدمة : أنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية : «كاتاستروفيكا إسلاميكا» التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ويؤمنون به «نبياً ورسولاً»[1] .

ولم يكن كايتانى وحده فى هذا الشعور نحو التراث الإسلامى أو نحو الإسلام والمسلمين . وإنما كان هو الصريح من بين المستشرقين . وإن كانت صراحة محدودة أيضاً .

وإن الناظر إلى التاريخ السياسى الحديث ، وإلى تاريخ استعمار العالم الإسلامى فى العصر الحديث . وإلى تاريخ استعمار العالم العربى على وجه الخصوص ليدرك بغير عناء أن حركة الاستشراق واكبت وسايرت حركة الاستعمار بل مهدت لها فى كثير من البلاد . وليس من الخفى على أحد من المثقفين أن أول جماعة أسست لخدمة الاستشراق والانتفاع بجهد رجاله سياسياً . قامت فى فرنسا سنة ١٢٠٢ هـ - ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات . وأن هذه المسايرة وهذا التمهيد للاستعمار هو الذى جعل حركة الاستشراق كلها - إلا فى القليل النادر - موضع الشك والريبة . وهو الذى انحرف بها عن الجادة وحاد بها عن الحق وآداب البحث العلمى النزيه . وهذا هو ما نعنيه بتشويه التراث الإسلامى كوسيلة من وسائل الغزو الفكرى الخبيث الذى يفقد المسلمين ثقتهم فى كتابهم وسنة رسولهم صلى الله عليه وسلم . وتاريخهم ونظام حياتهم وتراثهم .

ولا نستطيع فى هذا البحث أن ندلل على تشويههم للتراث الإسلامى بكل الوسائل التى قاموا بها فى هذا المجال . لأن مثل هذا الاستيعاب بالغ العسر

---

(١) عائشة عبد الرحمن . تراثنا بين ماضى وحاضر : ٥١ ط دار المعارف القاهرة .

من جانب ، وغير ممكن فى إطار هذا البحث من جانب آخر ، لا سيما إذا وضعنا فى الاعتبار أنهم شوهوا التراث الإسلامى بوسائل عديدة وفى ظروف متعددة وفى ألوف من الكتب والبحوث والنشرات ، من أجل هذا سوف نكتفى بالإشارة الدالة واللمحة المعبرة والاستشهاد ، وهو أمر جعلنا نقصر الحديث هنا فى مجال تشويه التراث الإسلامى ، على مستشرقين اثنين لكل منهما صلة وثيقة بتشويه التراث الإسلامى من جانب ، ولكل منهما مكانة مرموقة عند كثير من الدارسين مسلمين وغير مسلمين من جانب آخر .

هذان المستشرقان هما : -

١ - الأمير الإيطالى : ليون كايتانى (١٨٦٩-١٩٢٦ م) أحد كتاب دائرة المعارف الإيطالية .

٢ - يوسف شاخت : (١٩٠٢-   ) المستشرق الألمانى وأحد كتاب دائرة المعارف الإسلامية .

أما الأمير الايطالى : ليون كايتانى فهو معدود من أكبر المستشرقين - بل أكبر مستشرق فى التاريخ العربى »[1] .

وقد سبق أن قلت آنفاً : أن مقدمة كتابه «حوليات العالم الإسلامى» قد اشتملت على تصريح له خلاصته : أنه يقوم بهذا العمل الضخم فى التاريخ للإسلام ، ليفهم سر «المصيبة الإسلامية» التى انتزعت من المسيحية أتباعها .

ولنا أن نتساءل حول ما يكتبه كايتانى عن الإسلام ألهذه الكتب قيمة علمية موضوعية ؟ أله تلك القيمة وهو صادر من رجل حاقد سلفا ؟ .

وإن نظرة إلى الكتب التى ألفها كايتانى لتدلنا على هدفه الذى يريد أن يصل إليه من وراء ذلك العمل المضنى ، فهو قد أنفق ماله - حتى أفلس - وفرغ نفسه وضحى بوقته كله فى سبيل العلم - كما يقولون - وجعل همه البحث

---

(١) نجيب عقيقى : ١/ ٣٧٢ط دار المعارف -القاهرة .

فى تاريخ الإسلام وحركته ، لا لشىء إلا ليفهم «سر المصيبة الإسلامية» كما قلنا .

ومن أشهر كتبه وبحوثه :

١ - نمو الشخصية الإسلامية (العالم الإسلامى ١٩١١ م) .

٢ - انتشار الإسلام وتطور الحضارة (العلوم ٦ بولونيا عام ١٩١٢ م) .

٣ - دراسة التاريخ الشرقى : سيرة الرسول (ميلانو ١٩١٤ م) .

٤ - تاريخ الإسلام من العام الأول الهجرى إلى عام ٩٢٢ هـ (٦٢٢-١٥١٧ م)

فكانت الحقبة الأولى من العام الأول الهجرى إلى عام ١٣٢ هـ فى خمسة مجلدات ١٧٣٠ صفحة (باريس - روما من ١٩١٢ إلى ١٩١٨ م) .

وتاريخ البحر الأبيض المتوسط والشرق الإسلامى فى سنة ١٣٣ هـ إلى ١٤٤ هـ فى ٣٣٤ صفحة (مؤسسة كايتانى - مجمع لنشاى روما ١٩٢٣ م) .

وحوليات الإسلام ، من المجلد الخامس إلى المجلد العاشر فى ٣٢٠٦ صفحات (ميلانو - روما من سنة ١٩١٢-١٩٢٦ م)[١] .

وفى كل ذلك الذى كتبه كايتانى عن الإسلام وتاريخه وتاريخ النبى صلى الله عليه وسلم ، لم تفارقه روح التعصب ، ولا الرغبة فى التشويه ، ولم تفارقه أبداً - كما قال هو عن نفسه - الرغبة الملحة فى التعرف على «سر المصيبة الإسلامية التى انتزعت المسلمين من المسيحية» .

ولننظر كيف يعبث «كايتانى» بالتراث الإسلامى عبث الحاقد المتعصب الذى أعمته الكراهية «للمصيبة الإسلامية» على حد قوله ..

فى كتابه (الحوليات الإسلامية) فى الجزء الأول منه فصل بعنوان :

---

(١) السابق : ١/ ٣٨٤ .

(ملاحظات نقدية عن القيمة التاريخية لأقدم ما روى من السنة عن شئون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ..

وأنا هنا أنقل عن دائرة المعارف الإسلامية حيث يعلق المرحوم أمين الخولى على «مادة أصول» التى حررها المستشرق الألمانى يوسف شاخت فى الدائرة :

فى هذا الفصل عرض - كايتانى - للسنة سندها ومتنها بما عرض له . وكان مما جاء فى نقد المتن قوله فى آخر الفقرة (١٥) عمن بعد الصدر الأول من المحدثين ما ترجمته :

«كل قصد المحدثين ينحصر فى واد جدب ممحل ، من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروى . ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه» .

وفى الفقرة (١٦) يقول : «لكن إذا كان الإسناد كامل النظام محتوياً أسماء حسنة . استبعد كل اشتباه وسوء ظن» .

وفى الفقرة (١٨) يقول : «سبق أن قلنا إن المحدثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع فى التحليل النقدى للسنة إلى ما وراء الإسناد ، بل يمتنعون عن كل نقد للنص . إذ يرونه احتقاراً لمشهورى الصحابة وقحة ثقيلة الخطر على الكيان الإسلامى» ..

ثم يواصل قوله فيقول : «إذا كان الإسناد من الصحابى فى النهاية حتى يؤلف المجموع الحديثى (بخارى أو مسلم مثلاً) كان الأساس قوياً . وصار نص السنة قسماً من الوحى الإلهى ولذلك لا يناقش . فإن كان الإسناد على غير نظام كان النص تقريباً كذلك . ولا يمكن اعتباره موثوقاً به . ولذا فأى امتحان له غير مفيد من هذا الارتباك الغريب . ومن ذلك الخلط بين الإنسانى - يعنى السند - والالهى - يريد السنة المروية - نشأت كل الأغلاط فى السنة الإسلامية» .

هذا هو عبث «كايتانى» بالتراث الإسلامى . وذلك مبلغ حرصه على

التحقيق والتدقيق والتوثيق ذاك هو كايتانى الذى يثق فيه كثير من الباحثين مسلمين وغير مسلمين .

يقول المرحوم أمين الخولى تعليقاً على كلام «كايتانى» الذى نقلنا : ثم يطيب فى هذا المقام بما لا يتجاوز هذه المعانى :

وها هو ذا كاتب مادة أصول يقول هنا : «ومن المهم أن نلاحظ أنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للإسناد نفسه» وهو مخفف مما قاله «كايتانى» آنفاً – ..

ثم جاز هذا المعنى إلى الشرق . فقال الأستاذ أحمد أمين فى الجزء الثانى من ضحى الإسلام . ما هو تسليم بجملة هذه الملاحظة إذ يقول : «وفى الحق إن المحدثين عنوا عناية تامة بالنقد الخارجى – يريد نقد السند – ولم يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلى» . ثم يقول : «ولكنهم لم يتوسعوا كثيراً فى النقد الداخلى . فلم يعرضوا لمتن الحديث هل ينطبق على الواقع أولا؟ ......

ثم يعلق أمين الخولى على كلام أحمد أمين فيخطئه بما لا نرى داعياً لذكره هنا .

فترى قول «كايتانى» : إذا كان الإسناد كامل النظام استبعد كل اشتباه» وقوله : إذا كان الإسناد من الصحابى حتى مؤلف المجموع السنى كان نص السنة قسماً من الوحى الإلهى ولذا لا يناقش الخ» .

فترى هذه الأقوال وما يشبهها فى كلامه من تقرير دوران قوة الحديث مع قوة السند وجودا وعدما تنقضها قاعدة مشهورة عند علماء أصول الرواية هى قولهم : واعلم أنه لا تلازم بين الإسناد والمتن إذ قد يصح السند أو يحسن لاستجماع شروطه من الاتصال والعدالة والضبط ، دون المتن لشذوذ أو علة وقد لا يصح السند ويصح المتن من طريق آخر «الأجهورى» : حاشيته على شرح البيقونية ص ٢٦ ، ٢٧ ، وهى قاعدة مشهورة توجد فى المختصرات الصغيرة لمصطلح الحديث ، ونقضها لعبارات كايتانى واضح لا يعوزه الشرح .

ثم نرى قوله أيضا : «ما من أحد شغل نفسه بنقد النص نفسه» وقوله : «ان المحدثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع فى التحليل النقدى للسنة الى ما وراء الإسناد ، بل يمتنعون عن كل نقد للنص الخ» فنرى أن أشياء كثيرة من عمل المحدثين تبطل هذا القول منها :

١ - ما أسلفناه من صريح قولهم فى عدم ربط السند بالمتن وذكر أشياء تؤثر على المتن بعد صحة السند كالشذوذ مثلا وسنعود إليه بكلمة قريبا .

٢ - إعطاؤهم الحديث القابا اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند كتسميتهم الحديث «بالشاذ» أو «المقلوب» أو «المضطرب» أو «مدرج المتن» أو «المحرف» أو «المصحف» ونحو ذلك من أسماء لا مرد لها الا اعتبارات فى المروى نفسه تبين فى علم الحديث دراية ولا نطيل بشرحها .

٣ - وضعهم قواعد لنقد المتن تصل من الحرية العقلية إلى حد بعيد ، وتقوم حينا على اعتبارات عقلية صرفة ، وحينا على معان أدبية فنية ، وحينا تعتمد على مقررات شرعية .

أ - فمن الاعتبارات العقلية الجريئة . أن كل خبر يناقض صريح العقل . حيث لا تأويل فهو باطل - على القارى وابن حجر العسقلانى - شرح نخبة الفكر ص ١٢٦ ، ١٢٧ . وحسب عشاق الحرية العقلية الصحيحة أن من المقررات الإسلامية إخضاع نص القرآن نفسه للعقل على سبيل الافتراض - وقولهم : لو تعارضت آية ودليل عقلى فإن الدليل العقلى يكون حاكما عليها الآمدى : الأحكام ج ٣ ص ٢٢٦ .

ب - ومن المعانى الفنية التى حكموها فى نقد السند اعتبارهم ركاكة اللفظ للحديث أو ركة معناه علامة على وضعه .. الخ ..

ج - ومن الاعتبارات الدينية التي تقوم على جعل المقررات الشرعية وحدة معقولة متماسكة متوافقة أن عدّوا من علامات وضع الحديث مخالفة القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي .. الخ - النخبة وشرحها في الموضوع السابق .

٤ - إنهم نقدوا المتون الدينية بالفعل نقدا مطبقا على الأصول النظرية السابقة التي قرروها . ومن حسن الاتفاق أن قد سقنا لذلك كله أمثلة من نقد المتن في التعليقة الأولى من تعليقنا على هذه المادة . وهي الخاصة بما يروى من سبب نزول آية ٥٢ من سورة الحج .

يقول كايتانى بعد هذا لهؤلاء إنهم لم يجرءوا على الاندفاع في النقد إلى ما وراء السند . أو يقول شاخت إنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للسند »[١] .

هذا ما فعله كايتانى من عبث بالتراث الإسلامي . وهو أنموذج واحد من مئات النماذج التي يمكن أن يحصل عليها الدارس لكتبه وبحوثه عن الإسلام والمسلمين .

وأما يوسف شاخت (١٩٠٢ م -   ) فإنه قد اشتهر بين المستشرقين بدراسة التشريع الإسلامي والحديث عن نشأته وتطوره وتأثره وأثره - كما يقول نجيب عقيقي في كتابه : «المستشرقون»[٢]

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٣/ ٤٩٦ . ٤٩٧ - تعليق المرحوم أمين الخولي .

(٢) نجيب عقيقي : المستشرقون : ٢/ ٨٠٣ .

وقد عبث يوسف شاخت ماشاء له العبث بالتراث الإسلامى ، محاولا أن ينفس فى هذا العبث عن أحقاده على الإسلام والمسلمين . ويكفى هنا – فى هذا المجال المحدود من البحث – أن نذكر ما قاله فى مادة «أصول» التى كتبها فى دائرة المعارف الإسلامية .

جاء فى الفقرة الثالثة مما كتبه «شاخت» فى مادة «أصول» ما نصه :

«وبموت النبى (صلى الله عليه وسلم) انتهى بالطبع التشريع الذى كان يقوم على التنزيل أو على حجية النبوة . وكان من الطبيعى أن يحاول الخلفاء الأول السير بالأمة الإسلامية على سنة منشئها مسترشدين فى ذلك برأى كبار صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكانت المبادئ التى استرشدوا بها هى ما ورد فى الكتاب وما صح من أحكام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما لم يرد له ذكر فى الكتاب . ومما حاولوا بسط هذه المبادئ المحدودة نوعا ما . انتهى بهم الأمر إلى التوسع فى تأويلها توسعا خرج بها عن معناها الأصلى . **وربما كان سببا فى ظهور أحاديث جديدة** .

وفى الوقت نفسه لم يكن الخلفاء باعتبارهم رؤساء للدولة وخلفاء للنبى (صلى الله عليه وسلم) محرومين من الجهود التشريعية بل ومن تغيير أحكام النبى (صلى الله عليه وسلم) .. (انظر ما سبق) .

وربما صح تاريخيا ما تقوله الروايات من أن أبا بكر كان يحتذى حذو النبى (صلى الله عليه وسلم) فى هذا الأمر بينما كان عمر أكثر ميلا إلى التعديل والتغيير على أن الصلة بالقانون العرفى ظلت كما هى دون تغيير حتى بعد أن تعرض لكثير من المؤثرات الأجنبية نتيجة للفتوح العظيمة فى العراق والشام ومصر» .

وفى الفقرة الرابعة من هذا البحث يقول :

«ولما جاء بنو أمية وانتقل مقر الحكم إلى دمشق . فقدت جماعات المؤمنين فى المدينة – التى كانت مقر الحكم قبل ذلك – كل نفوذ فعلى فى أمور

الحكومة ، فأخذوا يكرسون أنفسهم فى حمية وحماسة لتصوير المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه الأشياء - وكان ذلك المثل مباينا لما كانت عليه فى الواقع .

وكان القانون العرفى يسود أقاليم الخلافة المتعددة دون منازع ، ويتطور جنبا إلى جنب مع النظام الفعلى للقضاء - وذلك لأن خلفاء بنى أمية إلى عهد عمر بن عبد العزيز كانوا بوجه عام لا يميلون كثيرا إلى تغيير ذلك القانون العرفى وإنشاء مقاييس تنهض على أساس دينى .

وقامت مبادئ التشريع الإسلامى لأول مرة فى المدينة ثم فى العراق والشام وأولئك الرجال الصالحون الذين عملوا بادئ الأمر دون أن تكون لهم خطة مرسومة أو منهج معين . كانت غايتهم تصحيح مادة القوانين التى كانت موجودة عند ذاك ، والتوفيق بينها وبين مبادئ الدين الإسلامى وسلكها فى نظام خاص ، واستمدوا آراءهم الدينية من الكتاب والحديث اللذين كانوا يتقيدون بهما ، وكانوا يحتجون أيضا بأقوال الصحابة وأفعالهم (صحيحها ومنحولها) »[1] .

ثم يعلق المرحوم أمين الخولى على ما كتبه شاخت تعليقا شافيا ننقل منه ما يأتى :

«أول ما يلاحظ أن الكاتب فى كلامه هنا عن أقوال الصحابة وأفعالهم يضع بين قوسين كلمتى صحيحها ومنحولها كما أنه عندما يذكر فيما بعد هذا بقليل سنة محمد (صلى الله عليه وسلم) التى ينهض الجانب الأكبر من الفقه الإسلامى عليها . يتوخى كذلك أن يضع بين القوسين كلمتى صحيحها وزائفها فهذا الحرص المريب لا يقوم على أساس من النظر العلمى لأنه إن أراد من هذا القول أن الفقهاء قد فات فى نقدهم للسنة شئ من المنحول والزائف

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٩٣/٣ .

فجائز عقلا أن يكون ذلك ولا يقول بعصمة الفقهاء أحد ، ولكن ليس هكذا يطلق القول ، على أن الكاتب لم يبين قوله هذا بمثال ، وإن أراد من هذه العبارة أنهم قصدوا إلى المتحول والزائف فاعتمدوا عليه فهذا باطل لا يتّهمهم به أحد وإن أراد ادعاءه فليس بهذه السهولة يلقى ويكرر !! فعليه أن يوضح قوله ويحتج له .

ونعود بعد ذلك إلى قوله : من أقوال الصحابة وأفعالهم فهو يذكر : أنهم كانوا يحتجون بأقوال الصحابة وأفعالهم .. الخ ، وهذا ليس صحيحا ، لأن أقوال الصحابة من حيث هي أقوال الصحابة لا يحتج بها وإنما يحتج بها من حيث هي سنة عن الرسول عليه السلام ، والأصوليون فى الأخذ بها قد جروا على دقتّهم ، ففرقوا الفرق العميق بين عبارات الأداء لهذه الأقول ، واختلفوا حولها ، فعندهم : أن قول الصحابى : قال رسول الله كذا مما يختلف فى أنه عن النبى أولا ، وقول الصحابى : سمعت رسول الله يأمر بكذا وينهى عن كذا مما يختلف فى كونه حجة ، وقوله : من السنة كذا قد اختلف فى حمله على سنة الرسول » . الآمدى الأحكام ج ٢ ص ١٣٥ – ١٣٩

ثم مذهب الصحابى المجتهد قد اتفقوا على أنه لا يكون حجة على غيره من الصحابة المجتهدين ولو كان إماماً أو حاكماً أو مفتياً ، واختلفوا فى كونه حجة على التابعين ومن بعدهم من المجتهدين ، والمختار أنه ليس بحجة مطلقا ، ثم بعد القول بأن مذهب الصحابى ليس حجة واجبة الاتباع ، قد اختلفوا فى أنه يجوز لغيره من المجتهدين تقليده أولا ، والمختار امتناع ذلك مطلقا »[1]

وهذا ابن حزم يضع الصحابة فى رأس من لا يقلد ، فيقول بعباراته القوية المعروفة « ..أوجد – أى الإنسان – نفسه تحكم فيما نازعت فيه أحداً

---

(١) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام ٤٨٥/٢ – ٤٨٦ و٢٠٨/٤ ٢٠٩ .

دون رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب فمن دونه فليعلم أن الله تعالى قد أقسم - يريد قوله تعالى : «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت» الآية - وقوله الحق أنه ليس مؤمنا ، وصدق الله تعالى وإذا لم يكن مؤمنا فهو كافر ، ولا سبيل إلى قسم ثالث ، وليعلم أن كل من قلد من صاحب أو تابع : أنّ مالكا وأبا حنيفة والشافعى وسفيان ، والأوزاعى وأحمد وداود رضى الله عنهم متبرئون منه فى الدنيا والآخرة ويوم يقوم الأشهاد» ابن حزم : الأحكام ج ١ ص ٩٩ .

وليس القول فى أفعال الصحابة على غير هذا التقدير لأقوالهم لا احتجاج بهذه الأفعال من حيث هى أفعال صحابة ، إلا أن يتعلق الكاتب فى ذلك بما يذكره المالكية من عمل أهل المدينة ، كما سيشير إليه بعد ، وليس النظر لهذا العمل من حيث هو عمل الصحابة خاصة ، فلا وجه معروف لما ذكرنا »[1].

وبعد : فهذان أنموذجان لعبث المستشرقين بالتراث الإسلامى ، وهم بعد ذلك ينشرون هذا العبث فى لغاتهم ثم يتخذه بعض الدارسين مسلمين وغير مسلمين مراجع ذات أهمية كبيرة ، وذات ثقة ربما لم تكن محدودة فى نظر هؤلاء الدارسين ، كما رأينا منذ قليل كيف نقل عنهم أحمد أمين على النحو الذى ذكره المرحوم أمين الخولى .

ولا أحب أن أنهى هذا الفصل من البحث دون أن ألقى ضوءا على الاستشراق أسبابه ومظاهره لما له من صلة بتلك التيارات .

أما أسباب الاستشراق فإن أبرزها سبب دينى فى الدرجة الأولى ، فقد تركت الحرب الصليبية فى نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة .

وجاءت حركة الإصلاح الدينى المسيحى فشعر المسيحيون : بروتستانت

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٩٣/٣ - ٤٩٤ ط دار الشعب - القاهرة .

وكاثوليك . بحاجات ضاغطة لإعادة النظر فى شروح كتبهم الدينية . ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التى تمخضت عنها حركة الإصلاح . ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية . وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية . لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى . وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوى . وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية »[1] .

ومن هذه الأسباب «رغبة المسيحيين فى التبشير بدينهم بين المسلمين . فدعاهم ذلك إلى الإقبال على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامى . وقد التقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم واعتمد عليهم فى بسط نفوذه فى الشرق . وقد أقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربى فى الشرق . وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته . وزودهم بالمال والسلطان . وهذا هو السبب فى أن الاستشراق قام فى أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار »[2] .

وبجانب هذا وذاك . كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق : أسباب تجارية . وأسباب سياسية . «ودبلوماسية» . وأسباب شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهيأ لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة فى السفر أو فى الاطلاع على ثقافات العالم القديم . ويبدو أن فريقا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية . أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء فى العلوم الأخرى . أو دخلوه تخلصا من مسئولياتهم الدينية المباشرة فى مجتمعاتهم المسيحية . أقبل

---

(١) نجيب عقيقى : المستشرقون مقدمة الجزء الأول .

(٢) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الأوربى ٥٣٣ .

هؤلاء على الاستشراق تبرئة لذمتهم الدينية أمام إخوانهم فى الدين . وتغطية لعجزهم الفكرى ، وأخيرا بحثا عن لقمة العيش إذ أن التنافس فى هذا المجال أقل منه فى غيره من أبواب الرزق[1]

وهناك ملاحظة لبعض الباحثين تتعلق بالمستشرقين اليهود خاصة . فالظاهر أن هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية - وهى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الإسلام الأول . ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرة أولاً ثم دولة ثانياً . هذه وجهة نظر ربما لا نجد مرجعاً مكتوباً يؤيدها غير أن الظروف العامة والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه . وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى .

وقد تركزت أهداف الاستشراق مع تنوعها أخيراً فى خلق التخاذل الروحى وإيجاد الشعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقيين عامة . وعملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية »[2] .

من أسباب الاستشراق ما أشار إليه مؤلفا : التبشير والاستعمار حيث قالا : «ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم فى سبيل ذلك . ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية . أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية (التى يعدونها نصرانية ، لأن أمم الغرب بالنصرانية) ليخرجوا دائماً بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية . وبالتالى إلى إبراز نواحى النشاط الثقافى فى الغرب وتفصيلاً على أمثالها فى تاريخ العرب والإسلام . وما غايتهم

---

(١) نجيب عقيقى : المستشرقون : جـ ١ ص ١٩ ، ٢٨ ، ٤٠ .

(٢) محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الأوربى ٥٣٤ .

من ذلك إلا تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية»[1].

تلك أسباب الاستشراق كما تحدث عنها الكتاب مسيحيون ومسلمون ، وهي أسباب مجملة يحتاج كل منها إلى إسهاب وتفصيل .

أما مظاهر الاستشراق وأنشطته فهي كثيرة يمكن أن نشير إليها على النحو التالي : -

«حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل : ألقوا المحاضرات والدروس و «بشروا» بالمسيحية بين المسلمين وجمعوا الأموال وأنشأوا الجمعيات وعقدوا المؤتمرات . وأصدروا الصحف . وسلكوا كل مسلك ظنوه محققاً لأهدافهم .

وهذه نماذج من صور نشاطهم المتعدد الجوانب :

١ - في عام ١٨٨٧ م أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى في عام ١٨٢٠ م وكان إصدار «المجلة الآسيوية» .

٢ - في لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام ١٨٢٣ م ، وقبل أن يكون الملك ولي أمرها .. وأصدرت «مجلة الجمعية الأسيوية الملكية» .

٣ - في عام ١٨٤٢ م أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم «الجمعية الشرقية الأمريكية» وفي العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم ، كذلك فعل المستشرقون في كل من النمسا وإيطاليا وروسيا .

٤ - ومن المجلات التي أصدرها المستشرقون الأمريكيون في هذا القرن «مجلة جمعية الدراسات الشرقية» وكانت تصدر في مدينة «جامبير» بولاية «أهايو» ولها

---

(١) الخالدي وآخر : التبشير والاستعمار : ص ١٧ .

فروع فى لندن وباريس وليبزج ، وتورونتو فى كندا ، ولا يعرف إن كانت تصدر الآن ، وطابعها العام على كل حال طابع الاستشراق السياسى وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية ، وخاصة فى باب الكتب .

٥ - ويصدر المستشرقون الأمريكيون فى الوقت الحاضر : «مجلة شئون الشرق الأوسط» وكذلك «مجلة الشرق الأوسط» وطابعها على العموم الاستشراق السياسى كذلك .

وأخطر المجلات التى يصدرها المستشرقون الأمريكيون فى الوقت الحاضر هى مجلة «العالم الإسلامى» أنشأها صموئيل زويمر فى سنة ١٩١١ م . وتصدر الآن من هارتفورد بأمريكا ورئيس تحريرها كنيث كراج وطابع هذه المجلة تبشيرى سافر .

وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة «العالم الإسلامى» فى روحها واتجاهها العدائى التبشيرى واسمها أيضاً Le Monde Musulmon

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار «دائرة المعارف الإسلامية» بعدة لغات . وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التى صدرت بها الدائرة . وقد بدأوا فى الوقت الحاضر فى إصدار طبعة جديدة تظهر فى أجزاء . ومصدر الخطورة فى هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وهى مرجع لكثير من المسلمين فى دراستهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوى فى مصر . والمجمع العلمى فى دمشق والمجمع العلمى فى بغداد .

ويعتمد المستشرقون - فيما يعتمدون - على عقد المؤتمرات العامة من وقت

لآخر لتنظيم نشاطها . وأول مؤتمر عقدوه كان فى سنة ١٧٨٣ م وما زالت مؤتمراتهم تتكرر حتى اليوم .

وفى العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية فى الغرب بما كان يقوم به الملوك والأمراء فى الماضى من الإغداق على المستشرقين . وحبس الأوقاف والمنح على من يعملون فى حقل الاستشراق .

واتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية . محاولين غرس مبادئ التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا «مستغربين» فى حياتهم وتفكيرهم . وحتى تخف فى نفوسهم موازين القيم الإسلامية (انظر ص ١١٤ من مجلة «الإسلام» الصادرة فى ١٦ من مارس سنة ١٩٥٨ م)[1]

---

(١) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الأوربى : ٥٣٥ ٥٣٧ . ط دار الفكر . بيروت .

الفصل الثانى

حملات التغريب الموجهة ضد الإسلام

وتشمل:

١- تغريب التعليم والثقافة
٢- تغريب الحياة الاجتماعية

حملات التغريب الموجهة ضد الإسلام

تحدثنا عن حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام فيما سبق من البحث . حديثاً - وإن بدا مسهباً - رأيناه من ضرورات البحث ومتطلباته . كما تصورنا ..

ونتحدث الآن عن حملات أخرى لا تقل ضراوة عن حملات التشويه . وهي حملات التغريب للإسلام ، فكره وتاريخه وحضارته ..

ونعني بهذا التغريب تأثير الغرب فكره وحضارته في المسلمين .

وهذا التغريب مجموعة من الدراسات والأعمال والثقافات والنظم تجري حول المسلمين وتطبق على مجتمعاتهم فتؤدي بهم في النهاية إلى أن يتشبعوا بالفكر الغربي والحضارة الغربية المعادية للإسلام ، أو يكونوا تحت تأثير هذه الحضارة بحيث تحتويهم وتقضي على شخصياتهم وعلى ولائهم لدينهم .

وهذا التغريب حملة خُطط لها بذكاء ودُبر لها بليل ، وهي من حيث المراحل تأتي - كما أتصور - في أعقاب حملات التشويه ، لأن من يشوهون الإسلام على النحو الذي ذكرناه فيما سلف من البحث إنما يعملون من أجل أن يكون هذا التشويه خطوة أولى تتلوها خطوات ، من أولى هذه الخطوات - كما أتصور - تغريب المسلمين بتحويل ولائهم للغرب ونظمه وعاداته وتقاليده ، بعد صرفهم عن الإسلام الذي شوه لهم إلى هذا الحد الذي تحدثنا عنه آنفاً ، فليس أقرب إلى الارتماء في حضارة الغرب من قوم فقدوا ثقتهم في دينهم ومنهج حياتهم ونظامها ..

ولو شئنا أن نزيد الأمر وضوحاً على وضوحه لقلنا : إن الاستشراق بأعماله قد مهد للتبشير وألقى له البذرة فى التربة وأن التبشير مهّد للاستعمار وسقى البذرة ورعاها حتى أينعت وحان قطافها وإن الاستعمار جاء ليقطف الثمر ويجنى المحصول ويعيد توزيع الأنصباء على الشركاء . فدعم الاستشراق مادياً ومعنوياً وأقام له المؤسسات والمراكز وعقد له المؤتمرات وأنفق عليها طائل الأموال . ودعم مراكز التبشير وهيأ لها من الوسائل والإمكانات ما جعل شرها يزيد وضررها يستشرى وقنائصها وضحاياها يقبلون على الشراك وهم ذاهلون عما يراد بهم . هذا فضلاً عما قام به الاستعمار لصالحه هو من تخريب وتدمير واستنزاف لخيرات البلاد الإسلامية .

ولقد تحكم الاستعمار فى العالم الإسلامى والعالم العربى فكان حكامنا والقائمون على أمرنا - حيناً طويلاً من الزمان - منهم . فتصرفوا فى العالم الإسلامى تصرف المالك فى ملكه . تصرفوا فى البشر فسخوا شخصياتهم وشوهوا أفكارهم وحولوا ولاءهم من دينهم إلى الحضارة الغربية . وتصرفوا فى الأرض . زرعوها حسب حاجة مصانعهم ومعاملهم فالقطن والكروم وغيرها لمصانع الغزل والخمور وغيرها .

وتحكموا فى كل المقدرات الاقتصادية للعالم الإسلامى ، حتى فلول الجيوش المنهزمة أمامهم منعوها فى كثير من البلاد المسلمة من أن تتطور أو تزيد . وجعلوا سلاحها كله وقفاً على مصانعهم . وحالوا بيننا وبين النهضة الصناعية ودعونا بلاداً زراعية فحسب ، وزعموا أننا لا نفلح فى صناعة وانطلت الخدعة على - الغافلين - امتلأت كتب المدارس والجامعات بهذه الافتراءات . ونقرأ حتى يومنا هذا أن معظم بلدان العالم الإسلامى زراعية وأن سكانها يعيشون على الزراعة والرعى !!!

هؤلاء المستعمرون أداروا دفة السياسة فى بلادنا فاستوردوا لنا من بلادهم النظم والقوانين فى الاجتماع والاقتصاد والسياسة ليديروا بها بلاداً وبشراً يوقنون

بأن هذه النظم تتصادم مع عقيدتهم وتتضارب مع دينهم ومعاملاتهم . ولا تحقق لهم - بناء على ذلك - شيئاً من نفع . فضلاً عما تلحق بهم من أضرار .

ومن عجب أن وجدوا فينا معشر المسلمين من يروّج لهم ولمبادئهم . ومن يزرى بدينه ومنهجه فى الحياة من أجل عرض من أعراضهم .

وقد ملك المستعمرون فى بلادنا كل مرافقها وكل خيراتها وهيمنوا على التعليم والثقافة وشطروا التعليم إلى شطرين دينى ودنيوى ودعموا الثانى وحاربوا الأول وقصروا الوظائف والمنح والبعثات على المتخرجين فى التعليم الذى وضعوا هم مناهجه وخططه فارتمى الناس على أعتابهم وتعلقوا بأذيالهم وحاربوا كل ثقافة إلا ثقافتهم وكل تعليم إلا تعليمهم ، ولا نزال حتى يومنا هذا نعانى من نتائج هذه السياسة ؛ سياسة محاربة المسلمين فى مستقبلهم وأرزاقهم أو أن يذوبوا فى حضارة الغرب ونظمه وعاداته وتقاليده .

وفى كل مجالات الحياة الإنسانية فى عالمنا الإسلامى الكبير كان لهم نشاط وكيد وتدبير ، بحيث فرضوا علينا من النظم والعادات والتقاليد ما يغرينا حقاً وما يبعد بنا عن ديننا ونظمه وآدابه .

وسوف نتحدث فى الصفحات التالية من البحث عن بعض هذه المجالات – وعلى الله قصد السبيل .

فى مجال التعليم والثقافة

وهذا المجال هو أخطر مجالات الحياة الاجتماعية . والسيطرة عليه سيطرة على مستقبل الأمة وتحكم دقيق فى خطواتها على الطريق فى كافة ألوان النشاط البشرى وما دخل الاستعمار بلداً إلا وكانت ضربته الأولى نحو سياسة التعليم ونظمه فى هذا البلد ، وتاريخهم وتاريخ خططهم فى تشويه التعليم فى معظم بلدان العالم الإسلامى فى أفريقيا وآسيا ليس بخاف على أحد ممن يقرأون ويفهمون .

وعندما استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامى فى هذين القرنين الأخيرين كانت معظم بلدان العالم الإسلامى تمزج فى تعليمها لأبنائها فى المدارس والكتاتيب والمساجد والمعاهد وكافة دور التعليم : بين المعلومات والحقائق الدينية الإسلامية وبين المعلومات والحقائق التى تتطلبها حاجات الناس فى مجتمعاتهم المتغيرة ، فكانت سياسة هذه المدارس تقوم على تكوين المسلم الفاهم لدينه القادر على العمل والكسب الشريفين ، وما تخرج من هذه المدارس والمعاهد والمساجد رجل واحد يعجز - بسبب القصور فى مناهج تعليمه - عن ممارسة عمل شريف فى حياته فكلما كان يتلقى طالب العلم أصول دينه وفروعه فى المساجد والمعاهد والمدارس ، كان يتلقى أصول الحرفة التى يريد وكان المعلمون لهذه الحرف فى دكاكينهم وحوانيتهم يقومون بتعليم الراغب فى التعليم خير قيام ، وكان المتعلم يذهب إليهم صغير السن نسبيا حتى كان يسمى «صبيا» ولا تزال هذه التسمية تطلق فى بعض البلاد العربية على الشاب المبتدئ فى تعلم أى حرفة ...

هكذا كان حال التعليم يوم استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامى .

تعليم يستهدف التبصير بالدين والدنيا معا . فلما كان الأمر بأيدى هؤلاء الأعداء وجهوا كل اهتمامهم إلى هذا التعليم فأفسدوه . وفرضوا من خططهم ومناهجهم وموادهم التعليمية ما يؤكد فى نفوس المتعلمين احترام فكر الغرب وحضارة الغربيين وثقافتهم من جانب . وما يزرى بالفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية من جانب آخر . ورموا بهذا الشر كل المدارس والمعاهد وأماكن التعليم فى العالم الإسلامى كله . وما استعصى عليهم وعلى خططهم إلا قليل من المعاهد والمدارس التى كانت تعنى بدراسة علوم الإسلام كالأزهر فى مصر . وكبعض المساجد التعليمية فى قليل من بلدان العالم الإسلامى . إذ استطاعت هذه الأماكن – إلى حد كبير – أن تحافظ على اهتمامها بدراسة العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية فكانت بذلك رمزا لتمسك الأمة بدينها ولغتها وتراثها – ومع قلة هذه المعاهد والمساجد وقلة عدد المتعلمين فيها ، إذا قورنوا بعدد المتعلمين فى أماكن التعليم الأخرى ، فإنها كانت شجى فى حلوق المستعمرين ، وكانت سببا فى أن يوجه لها المستعمرون أعتى ضرباتهم بأخبث أساليبهم ، فأخذ الأعداء يقللون من شأنها ويضيقون فى الإنفاق عليها – وهم الذين يملكون وينفقون – ويزرون بالمتخرجين فيها ويحاولون عزلها عن الحياة العامة ، وتشويهها وتشويه ما تقوم على تدريسه وتعليمه فى أذهان الناس عن طريق الصحف المأجورة والأقلام المشتراة وأدعياء العلم المسيطرين .

ولنضرب على ذلك مثلا واحدا فى بلد عربى مسلم ، ذلك هو الأزهر «الشريف بقيامه على أمر علوم الإسلام» فى مصر البلد الاسلامى ، كما ينص على ذلك دستوره ، وكما هو واقع المواطنين فيه .

فقد لقى الأزهر من حرب المستعمرين وأذنابهم وأبواقهم والساخرين منه – تقربا إلى العدو الكافر – بنكاتهم ورسوماتهم ومقالاتهم وبحوثهم وكتبهم ودراساتهم – حربا لا هوادة فيها ، فضيق المستعمرون وأتباعهم من الحكام عليه وعلى المتخرجين فيه تضييقا لا يزال بعضه باقيا حتى الآن ، وسخر الأتباع منه من العلوم التى يقوم على تدريسها ومن اللغة العربية «المتقعرة كما قالوا ،

التى يدرس بها ، ومن عقليات علمائه وما هم عليه من غفلة وسذاجة كما يدعى الأذناب والأتباع » ، ومن الزى الذى يلبسون والكلمات التى ينطقون وكان وما يزال القصد من هذه الحملة هو أن ينعزل الأزهر برجاله وعلومه عن الحياة ، وعن التأثير والإيجابية فى المجتمع ، ينعزل الأزهر بهذا الأسلوب الخبيث عن المجتمع انعزالا يوهم الناس بأن العيب كامن فى الدين الذى يدعو إليه الواعظ وفى العلوم التى يدرسها المتخرج فى الأزهر ، وليس فى المجتمع الذى أفسده المستعمر والثقافات الشائهة المعادية التى صبها فى أذهان الناس .

وليست محاولة انتزاع تدريس اللغة العربية والدين الإسلامى فى المدارس العامة من المتخرجين فى الأزهر ببعيدة عن الأذهان ، ولن يستطيع الآتى من الزمان مهما تطاول مداه أن يُنْسِى الناس ما سطره بعض هؤلاء الدعاة المحالفون لحضارة الغرب الموالون لها فى حرب الأزهر ومحاولة سلب رجاله العمل الذى يقومون به .

ففى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» لطه حسين جاء حول هذه القضية قوله : «فالذين يزعمون أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب ، ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية ، إنما يخدعون الناس ، وليس ينبغى أن تقوم حياة الأمم على الخداع ، فإن اللغة العربية ليست ملكا لرجال الدين[1] يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون فيها ، لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعا من الأمم والأجيال ، وكل فرد من هؤلاء الناس حر فى أن يتصرف فى هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التى تبيح له هذا التصرف ، وإذن فمن السخف أن يظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر الشريف والأزهريين وعلى المدارس والمعاهد التى تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار ، هذا سخف لأن

(١) كلمة «رجال الدين» تعبير غربى مستورد غير وارد فى مفهوماتنا معشر المسلمين على مدى أجيال عديدة .

الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية . جميعا . وفيهم المسلم وغير المسلم »[1] .

هذه صورة من صور حرب الأزهر وسلب المتخرجين فيه أعمالهم أو أخص أعمالهم . وكما نادى طه حسين بأن يقوم بتدريس اللغة العربية غير الأزهريين . نادى كذلك بأن ينشأ معهد للدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب مهمته أن يعنى بالدراسات الإسلامية على نحو علمى صحيح - كما يقول .

وقد كتب طه حسين يبرر انشاء هذا المعهد فقال :

« ..كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوروبية وهى تعرف جهود المستشرقين فى الدراسات الاسلامية ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها فى هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التى ترى لنفسها زعامة البلاد الاسلامية وبين جهود الأمم الأوروبية .. »[2] .

ولعل النص التالى يوضح لنا حقيقة مشاعر الموالين لثقافة الغربيين نحو الأزهر والعلوم الإسلامية التى تدرس فيه . فى مؤتمر برنستون « للثقافة الإسلامية الذى عقد فى صيف عام ١٩٥٣ م بدعوة من جامعة برنستون الأمريكية . قدم الدكتور محمد خلف الله بحثا بعنوان : « القيم الإسلامية والحياة الأدبية فى مصر الحديثة » جاء فيه قوله فيما نحن بصدده : « فقد بدأ القرن التاسع عشر والثقافة مركزة فى الأزهر فى فروع الدراسة الإسلامية التى كانت تدرس على مناهج القرون الوسطى . والأدب مقصور على الآفاق الضيقة .. ثم اتجه النشاط حينا فى أواسط هذا القرن إلى حركة الطباعة ونشر الكتب المترجمة عن الغرب فى مختلف العلوم . وبدأت ثروة اللغة العربية تزداد

---

(١) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ٢٣ ط المعارف ١٩٤٤م ..

(٢) السابق : الفقرة٤٩ .

بهذه التراجم . وبدأت عقول المصريين تنقسم أرواحا جديدة من أدب الغرب وثقافته .. »[1] .

ولا نحب أن نستطرد فى محاربة الأزهر بأكثر من هذا لأن لهذه الحرب أسبابا وبواعث ما نرى بحثنا هذا يتحمل الحديث فيها وبسط القول على النحو الذى يقتضيه التعريف ببواعث هذه الحرب وأسبابها ونتائجها فى مصر وفى غيرها من البلاد العربية والإسلامية .

ولقد عمل المستعمر على أن يشن على اللغة العربية الفصحى . لغة القرآن الكريم . حربا ضارية عن طريق الدعوة إلى استخدام العامية واللهجات الإقليمية المحلية حينا . وإلى استخدام الأحرف اللاتينية بدل الأحرف العربية حينا آخر .

وإنّ أعجب العجب أن تصعد حملة الدعوة إلى العامية وإلى إحياء اللهجات الإقليمية ودراستها والعكوف عليها حتى تصل إلى أن ينادى بها ويؤيدها بعض أعضاء مجمع اللغة العربية - الذى من أبرز وظائفه المحافظة على الفصحى وتقريبها إلى الناس .

ففى المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية الذى عقد فى دمشق عام ١٩٥٦م الذى حضره وفد يمثل مجمع اللغة العربية فى القاهرة ووفد من المجمع العلمى العراقى ووفد من المجمع العلمى العربى فى دمشق ووفد يمثل الأمانة العامة للجامعة العربية . ومندوب يمثل اليونسكو . ومراقبون من الأردن والسعودية وليبيا ولبنان . وكان هدف هذا المؤتمر بحث شئون اللغة العربية . ولكن هذا المؤتمر دعا أعضاءه إلى العامية وإلى تبديل الخط العربى وتغيير قواعد النحو والصرف والبلاغة .

---

(١) محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة : ص٤٠ ط مؤسسة فرانكلين القاهرة ١٩٦٢

ولنضرب على ذلك بعض الأمثال :

١ - يتحدث أحمد حسن الزيات عضو مجمع اللغة العربية فى القاهرة عن قضية الفصحى والعامية فى المجمع فيقول : إن المحافظين من شيوخ الأدب قد سيطروا عليه فى أول نشأته - يقصد المجمع اللغوى نفسه - ثم انتهى زمانه إلى الكتاب والصحفيين الذين نبهوا المجمع إلى أهمية العامية وإلى خطورة جمود اللغة بتخلفها عن مسايرة الزمن ..!! هكذا يتحدث عن الفصحى أحد حماتها ولم يكتف الزيات بذلك ، بل قال : إنه يسهل علينا تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية ، وإن علينا أن نشرع فى دراسات عاميات الأقطار العربية المختلفة لإقرار ما هو مشترك منها سواء صح فى معاجم اللغة أو لم يصح .. !!

٢ - يتحدث على حسن عودة مندوب الأردن فى هذا المؤتمر فيقول : إن على الجامعة العربية أن تعنى بوضع معجم يسمى معجم العامة أو غير ذلك من الأسماء ، يكتفى فيه بالمفردات التى يحتاج إليها فى كافة مرافق الحياة ، وتحشد فيه أوضاع جديدة للدلالة على مستحدثات العصر الفنية المتداولة .. !!

٣ - يتحدث إبراهيم مصطفى عن تيسير قواعد اللغة العربية ، بما هو مخرب للغة العربية وقاض عليها فى حاضرها ومستقبلها .

٤ - يتحدث طه حسين فى مقال له بعنوان : تيسير القواعد فى اللغة - فينادى بقريب مما نادى به إبراهيم مصطفى فى تغيير قواعد الكتابة العربية .

٥ - يتحدث منير العجلانى وأنيس فريحة وأحمد عبد السلام أحاديث متقاربة فى الدعوة إلى تغريب اللغة العربية وقتلها »[1] .

---

(١) محاضرات جلسات هذا المؤتمر الذى نشرته الجامعة العربية - متفرقات . نقلا عن : حصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسين .

والعجيب أن هذه الدعوات ليست إلا صدى لما ردده أعداء الأمة الإسلامية من أمثال كرومر ودانلوب ويلككس وويلمون . وأذنابهم من أمثال إسكندر معلوف ورئيف أبي اللمع وفارس عمر وغيرهم ، وحشد من أساتذة هؤلاء من المستشرقين أمثال : وليم سيتا ، وفولارز ، ويوريان ، وماسبيرو وباول ، وفيلوت وغيرهم .

فهي حملة ضارية لتغريب اللسان العربي بقتل فصحاه أولا ثم إحلال لغات أجنبية أو لهجات عامية محل الفصحي ، ذلك أن أعداءنا يدركون تماما أن اللغة هي فكر الأمة ووجدانها ، وأن لسانها ما هو إلا تعبير عن هذه الأفكار والعواطف ، فالحرب الحقيقية لأمة تبدأ بحرب لغتها للقضاء على تاريخها وحضارتها ومسخ حاضرها ، ومستقبلها ، وقد نجح عدونا فى أن يغزو فكر الأمة الإسلامية بلغاته التى أشاعها بل فرضها على أبناء البلدان الإسلامية التى احتلها لغة تعليم ، ولغة وظائف بل لغة يستكثر بها من المال والجاه والسلطان - كما صرح بذلك أكثر من واحد من هؤلاء المستعمرين .

كما نجح عدونا فى أن يفقد كثيرين من أبناء الأمة الإسلامية ثقتهم بلغة القرآن الكريم ، فسماها أحيانا باللغة الدينية ، وأحيانا اللغة الجامدة الفظة الغليظة ، وأحيانا وصفها بالعجز والتخلف وأحيانا ادعى أنها أصعب اللغات فهما وتعلما ونحوا وتصريفا .

وما يجهل عدونا قيمة اللغة فى بعث كيان الأمة والنفخ فى روحها ، بل حملها على التحرر والاستقلال ، ما يجهل عدونا ذلك ولا نجهله نحن فلنا وله على ذلك من التاريخ الحديث شواهد وبراهين :

فالأمة التشيكية انبعثت حرة مستقلة عن طريق عنايتها بلغتها على الرغم من محاولة الألمان والنمساويين القضاء على اللغة التشيكية واعتبارها لغة أفظاظ - دعما لاحتلالهم للأراضى التشيكية - وإخلاصا لرغبتهم الشديدة فى حرب ماضى التشيكيين لإعادة حاضرهم ومستقبلهم ، ولكن التشيكيين بتمسكهم

بلغتهم وعنايتهم بها وحرصهم عليها فوّتوا على عدوهم غرضه ونالوا حريتهم واستقلالهم .

والنرويجيون حينما تمسكوا بلغتهم فى مواجهة الاحتلال الدانمركى والسويدى لبلادهم ورفضوا رفضا قاطعا لغة هؤلاء الأعداء - على الرغم من التقارب الشديد بين تلك اللغات - عندئذ عاشوا أحراراً مستقلين لا ينطقون لغة العدو التى تذكرهم بالذل والهوان .

وفى فرنسا قامت ضجة اجتمعت لها بعض المجالس النيابية واشتركت فيها الصحافة ، حتى إن صحيفة « لموند » أقامت الدنيا وأقعدتها آنذاك ، لأن كلمات أوروبية غير فرنسية قد تسربت إلى اللغة الفرنسية . فخاف الفرنسيون من ذلك على لغتهم أولا وعلى أمتهم الفرنسية ثانيا

وفى ألمانيا - فى عهد النازيين - أصر الألمان على أن يضعوا كلمات ألمانية موضع بعض الكلمات اللاتينية اليونانية التى كانت مستعملة . وقد أكد « فيختة » كاتب ألمانيا المعروف : أن اللغة الألمانية قادرة على رفع معنويات الأمة وإعادة وحدتها وتوطيد أركانها بعد أن كانت جيوش نابليون قد جعلت من ألمانيا ما يقرب من ثلاثين دويلة .

تلك شواهد من التاريخ الحديث على أهمية اللغة . أى لغة . فى الأمة التى يتكلم بها . فما بالنا إذا كانت لغتنا العربية هى لغة القرآن الكريم أكمل دين وأشمل نظام ؟

العجيب حقا أن يمضى عدونا فى حرب لغتنا وإفساد لساننا ثم يجد أبناء اللغة العربية من يستجيبون له ويرددون باطله ، فيكونون حربا على لغتهم وأمتهم ودينهم .

وما تلك العامية التى يروجّون لها ؟ أى عامية يعنون ؟ عاميات مصر العديدة أم عاميات الجزيرة العربية المتعددة ؟ أم عاميات المغرب العربى المختلفة ؟ أم عاميات الجزيرة الفراتية ؟ لست أدرى ولا أظنهم يدرون كذلك .

ولقد أتيح لى شخصيا أن أزور معظم بلدان العالم العربى وأن أستمع إلى عاميات صعيد مصر ودلتاها ونوبتها . وعاميات الكويت على ضيق مساحتها . وعاميات الأردن . والعراق جنوبه وشماله . وعاميات المغرب العربى تونس والجزائر والمغرب . وإلى اللهجات العديدة فى المملكة العربية السعودية غربها وشرقها وجنوبها وشمالها ووسطها – والمملكة العربية السعودية مهد الفصحى وأمها الرءوم – وأشهد – فى حدود علمى – أن هذه العاميات وتلك اللهجات التى لا تكاد تحصى فى هذه المنطقة العربية تستعصى على فهم كثيرين من العرب أنفسهم .

أى هذه اللهجات العامية يشجع دعاة العاميات ؟ ومهما دافع أنصار العاميات فسموها أحيانا لغة الشعب أو تراث الشعب أو المأثورات الشعبية . ومهما نادوا بأن تعنى بها الجامعات وأن تنشئ لها الأقسام العلمية والكراسى والأساتذة . فإن هذه الدعوة لن تبلغ من نفوس العقلاء مبلغ الرضى بحال .

وليس تشجيع تعلم اللغات الأجنبية واشتراطها فى بعض الوظائف فى العالم العربى بالذات إلا نوعا من التبعية . ولونا من الاعتراف بأن لغة العدو والمستعمر لها فى بلادنا من المكانة ما لا تستحقه . وما هذا التشجيع للغات الأجنبية فى حقيقته إلا تبعية فكرية ثقافية . وتغريبا ضروريا لعدد من أبنائنا . وهو فى الوقت نفسه حرب للغتنا وإحلال للغة أخرى محلها . وإهمال للغة القرآن الكريم . غير أن كلامنا هذا لا يعنى أن نرفض تعليم اللغات الأجنبية فى عالمنا الإسلامى . وإنما يعنى أن تكون للعربية المكانة الأولى فى العالمين العربى بالذات والإسلامى بعامة .

وما أحوجنى فى هذا الموقف مع دعاة العامية ومشجعى اللغات الأجنبية أن أذكرهم بكلمة عبر فيها كاتبها عن موقف الأسبان فى إقبالهم على اللغة العربية أيام «عبد الرحمن الداخل» حينما أعجبوا بها وكتبوا أروع ما كتبوا وهجروا اللاتينية . الأمر الذى أثار حفيظة متعصب كنسى هاله إقبال قومه على اللغة

العربية فأخذ يتباكى على ذلك — أريد أن أذكر الآن بهذه الكلمة لأنها تعكس بدقة موقفنا نحن من اللغات الأجنبية لغات أعدائنا وأعداء ديننا.

تحدث الكاتب الإسباني المشهور «الفارو Alvaro» في القرن التاسع الميلادي الثالث الهجري تقريبا يصف إقبال قومه على العربية. ويصور أسف أحد كبار الإسبان المتعصبين لهذا الإقبال فقال: «ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها. ولقد ساء ذلك بعض كبار الإسبان فقال: إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون. ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها. بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح. فإن اليوم من رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل؟ وأين اليوم من يقرأ الاناجيل وصحف الرسل والأنبياء؟ وا أسفاه!! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يبحثون أدبا أو لغة غير الأدب العربي. ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان. ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية. بينما هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الاصغاء اليها. محتجين بأنها شئ لا يستحق منهم مؤونة الالتفات. فيا للأسى. ان المسيحيين قد نسوا لغتهم. فلا نكاد نجد فيهم اليوم واحدا في كل ألف يكتب بها خطابا إلى صديق. أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب»[1].

أنا أهدى هذه الكلمات للعرب الذين يحاربون اللغة العربية. وأذكر بها تلاميذ طه حسين ومحبيه وأذكرهم بما قاله عميد الأدب العربي في مجال قريب من مجال حديث ذلك الأسباني المسيحي الغيور على لغته. أذكرهم بكلمة طه حسين في كتابه الذائع الصيت: مستقبل الثقافة في مصر. ليروا بأعينهم ما يتمنى طه حسين للغته العربية:

---

(١) مولود قاسم: إنية وأصالة — منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م.

يقول محاولا عزل اللغة العربية عن الحياة . وربطها بأن تكون لغة دين وطقوس وعبادات فحسب . لا لغة أدب وفكر وحياة : «وفى الأرض أمم متدينة كما يقولون . وليست أقل منا إيثاراً لدينها ولا احتفاظا به ولا حرصا عليه ولكنها تقبل فى غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التى تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها . ولها فى الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التى تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدى فيها صلواتها . فاللاتينية مثلا هى اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هى اللغة الدينية لفريق آخر . والقبطية هى اللغة الدينية لفريق ثالث . والسريانية هى اللغة الدينية لفريق رابع ... وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها . ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هى العربية . ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيمانا بالاسلام وإكبارا له وذيادا عنه وحرصا عليه[1] .

أظن هذا الكلام من عميد الأدب العربى غنى عن التعليق

ولنتحدث الآن عن ثمرات هذا الإفساد للتعليم خططه ومناهجه وأهدافه . لنرى كيف استطاع عدونا أن يغزونا فى عقر دارنا . وأن يفسد علينا أفكارنا . وأن يحولنا إلى أتباع له فى فكره وحضارته .

فمن أبرز ثمرات هذا الإفساد للتعليم أن حدث الاختلاط بين البنين والبنات فى معظم بلدان العالم الإسلامى فى المرحلة الابتدائية وفى بعضها فى المرحلتين المتوسطة والثانوية . وفى أغلبها فى المرحلة الجامعية . وترتب على الاختلاط ما ترتب من عيوب ومآخذ وابتعاد عن منهج الإسلام فى تنشئة البنين والبنات فى ظروف تحفظ لهم حياءهم وكرامتهم الإنسانية وتصون أنوثة الأنثى ورجولة الرجل من الابتذال والامتهان .

ومن ثمراته أن تحول ولاء معظم المتعلمين والمتعلمات إلى الثقافة الغربية والحضارة الغربية فارتمى فى أحضانها يعب من فسقها وانحلالها وانحرافاتها

---

(١) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر : ٢٢٩ - ٢٣٠ط المعارف ١٩٤٤م

بالفطرة الإنسانية عما فطرها الله عليه . متجاهلا ثقافته الإسلامية وحضارته الراشدة الهادية وآداب كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن ثمراته تلك المؤتمرات التى عقدت ولا تزال تعقد فى العالم الإسلامى للنشاط الثقافى وتبادل التجارب التعليمية والميدانية والمعلمين التى تتبناها منظمة «اليونسكو» وذلك الترويج للفلسفات والآراء الاجتماعية والسياسية التى يتبناها الغرب ويدعو إليها . هذا وذاك من ثمرات جهود الأعداء فى السيطرة على التعليم فى العالم الإسلامى . فهذه المؤتمرات والندوات تستهدف السيطرة الكاملة على العقلية الإسلامية والمجتمعات الإسلامية كلها .

ومن أمثلة هذه المؤتمرات المشبوهة فى نواياها :

١ - مؤتمر تبادل المدرسين بين البلاد العربية الذى انعقد فى القاهرة سنة ١٩٥٦م بدعوة من منظمة «اليونسكو» .

٢ - مؤتمر التعليم الثانوى الذى عقد فى مصر سنة ١٩٥٥م وشاركت فى الدعوة إليه الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

٣ - مؤتمر الحلقة التربوية التى دعت إلى عقده الجامعة الأمريكية فى بيروت سنة ١٩٥٤م وكان موضوعه «فلسفة تربوية متحدة فى عالم عربى متحد» .

٤ - حلقة دراسات التربية للتفاهم العالمى التى انعقدت فى مقر منظمة «اليونسكو» فى بيروت سنة ١٩٥٥م .

وغير ذلك من المؤتمرات والندوات والحلقات التى عقدت فى مختلف بلدان العالم الإسلامى . والتى تستهدف السيطرة على التعليم . نظمه ومناهجه وأهدافه فى العالم الإسلامى . أو تغريبه ليخرج لهم متعلمين يوالون ثقافتهم وحضارتهم ويعادون الحضارة الإسلامية .

وما يشك بصير بالسياسة أن «اليونسكو» خاضعة لنفوذ أمريكى ملحوظ .

وأن أمريكا خاضعة لنفوذ صهيونى ملحوظ . وأن الصهيونية من ألد أعداء الإسلام والمسلمين .

ومن ثمرات السيطرة على التعليم أن نبتت فكرة خبيثة تنادى بأن الدين من الأعمال الشخصية الفردية الخاصة بالإنسان . والتى تترك له فيها الحرية الكاملة دون التقيد فى ذلك بآداب اجتماعية معينة . ودون أن يكون لهذا التدين أدنى صلة بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية السائدة فى الحياة . ودون نظر إلى معايير أخلاقية بعينها . ودون أن يكون لهذا الدين صلة مؤثرة فى الحضارة أو الثقافة أو الفنون . وهذه الفكرة تستهدف عزل الإسلام عن حياة المسلمين ومسخ الشخصية الإسلامية بتحويل انتمائها إلى الحضارة الغربية .

ومن ثمرات سيطرة أعدائنا على التعليم دعوات الإلحاد والزيغ والفساد . وتخنث الرجال وترجل النساء . وكل آبقة من دعوات سفور المرأة ومخالطتها الرجال وتحريرها من سجن البيت - كما يزعمون - وتحويلها إلى ممثلة وراقصة ومغنية ومسامرة على موائد الخمر والميسر .

ومن ثمرات السيطرة على التعليم والمتعلمين أن مهدت الطريق أمام الأعداء - للقضاء على الموانع والعقبات - لكى ينشئوا مراكز وهيئات ومؤسسات معادية للإسلام محاربة لفكره وحضارته وأخلاقه وآدابه مثل :

مراكز التربية الأساسية فى العالم العربى . فهى تستهدف القضاء على القيم الإسلامية بدعوى التطوير والتنمية وهذه المراكز من أهم ركائز الغزو الفكرى فى العالم العربى والعالم الإسلامى . فهى تحول العادات والتقاليد الموروثة إلى عادات وتقاليد غربية لا تعرف الحياء ولا تستحى من الأحاديث الجنسية المكشوفة بين الناس .

هذه ثمرات السيطرة على التعليم وتغريب خططه ومناهجه وأهدافه . والهدف الكبير من وراء كل ذلك أن يذوب الكيان الإسلامى من نفوس المسلمين . ليصبحوا نهباً للفكر الغربى والحضارة الغربية .

في مجال الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم خلقية وآداب سلوكية ، وما يحيط بها من عادات وأعراف وتقاليد هدف ضخم لأعداء الإسلام والمسلمين ، فبالسيطرة عليها أو تغريبها يستطيع الأعداء أن يسودوا المجتمعات الإسلامية وأن يغرسوا فى نفوس الناس ما شاءوا من قيم وآداب وعادات وأعراف ، وإذا أفلحوا فى ذلك استطاعوا بأيسر مجهود أن يقتلعوا من نفوس الناس القيم الإسلامية والآداب القرآنية وكل فضيلة دعا إليها الإسلام .

وفى هذا المجال كان لمحاولة تغريب المرأة أولوية وأهمية ، لأن إفساد المرأة إسراع بالمجتمع كله نحو الفساد ، فمن المعروف أن المرأة ذات أثر لا ينكر فى تربية الأبناء وتنشئتهم منذ نعومة أظفارهم ومن هنا يكون تشويهها أو تعذيبها تشويهاً لأفراد الأسرة وبراعمها رجال المستقبل ونسائه .

فكانت الضربة الأولى للمرأة ، فنادوا بأن تخلع حجابها ففعلت وشجعها على ذلك الغافلون من أبناء دينها ، ثم نادوا بأن تتجرد من ملابسها شيئا وراء شئ ووجدت المرأة من أبنائها من يشجعها على ذلك ويزينه لها ، غافلا عما يقول أو ضالعاً مع الأعداء .

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أصبح اختلاط البنات والبنين شيئا مسلما به فى معاهد التعليم أكثرها وفى الحياة الاجتماعية أغلبها ، ثم زجوا بالمرأة فى ميادين العمل ومصارعة الحياة ومزاحمة الرجال ، تقوم بما لم تهيئه لها طبيعتها ومالا تستطيعه فى كثير من الأحيان ، فعملت صاغرة ذليلة مخلاة فى المزارع والمصانع ، وخدمت الرجال فى الفنادق ، وغنّت لهم ورقصت ، وقامت بالأدوار التمثيلية لتمتعهم بصوتها وجسمها وما حرم الله عليها فعله ، حتى غدت سلعة رخيصة تباع وتشترى .

ولم تقف حملات تعريتهم للمرأة وسلخها من إسلامها عند هذا الحد – على ما فيه من قسوة وضراوة – وانما تجاوزوا ذلك إلى العبث بحقوقها وواجباتها التى فرضتها الشريعة الإسلامية والتى هى أكرم أسلوب لحفظ كرامة المرأة وصيانة حاضرها ومستقبلها ، فعبثوا بنظام الطلاق فى الإسلام ، وعبثوا بنظام الحضانة ونظام الزواج ونظام الميراث .

وأعجب العجب أن نفذت ذلك بعض بلدان العالم الإسلامى ، سعيدة بأن المرأة بهذا سوف تكون مثل المرأة الأوروبية تماما

ألا ليتهم يستمعون أو يعقلون ما تتحدث به المرأة الأوروبية اليوم عن المنزلة التى هى فيها ! !

ألا ليتهم يعلمون إلى كم تضيق المرأة الأوروبية بما هى فيه وما هى عليه من حال ! !

هذا فى مجال المرأة .

وفى مجال الأسرة أخذت حملات التغريب صورة خبيثة ماكرة ، فبعد أن بعدت المرأة عن بيتها ومملكتها معظم وقتها وأغلب يومها ، كانت النتيجة الطبيعية لذلك أن يعيش أفراد الأسرة – وبخاصة الصغار – منهم فى إهمال وتهاون ، وترتب على عمل المرأة أن تترك أبناءها أغلب اليوم ليربيهم الخدم والأغراب ، ولا يمكن تجاهل الآثار النفسية والتربوية السيئة التى يعانى منها الطفل فى مستقبل أيامه حين تحرمه وسائل التغريب من حنان أمه وحدبها وحرصها على توجيهه وتربيته أحسن تربية بوحى من فطرة الأمومة النقية الصافية .. وحتى لو أشرفت المرأة على تربية أبنائها بعد أن شوهتها حضارة الغرب وأفسدت فيها فإن هؤلاء الناشئين لن يكونوا على الصورة التى تمكنهم من الإسهام فى بناء المجتمع الذى يعيشون فيه ..

ومن هنا نستطيع أن نجد السبب وراء الجنوح والانحراف واحتراف الحرف

المخلة بالآداب والمنافية للشرف والأمانة هنا - فى مجال العبث بالأسرة - تجد الجواب ! !

وفى مجال حرب المجتمع المسلم كله والحيلولة بينه وبين النمو والتزايد ، وجهت ضربة قاسية له فى الدعوة إلى تحديد النسل أو تنظيمه ، فهذه الدعوة الخبيثة فضلا عما فيها من إنقاص عدد المسلمين وإضعافهم ، فإن لها من الآثار الجانبية ما هو خطر وشر مبين .

فهذه الوسائل التى يمنع بها الحمل منها ما هو ضار بصحة الأم - كما أوضح ذلك بعض أهل الخبرة من الأطباء .. وهى فى عمومها ضارة بالأخلاق لأنها تتيح لكثيرات من أهل الفجور - والعياذ بالله - جريمة الزنا ثم يخفين آثارها بهذه الوسائل .

ولنا أن نتساءل قائلين :

لماذا تقوم الدعوة إلى تحديد النسل على قدم وساق فى بلدان العالم الإسلامى وحده دون دول أوربا مثلا ؟

ولماذا تشجع البلدان الإسلامية والعربية والنامية - كما يقولون - على تحديد النسل ، بينما تشجع بعض دول أوروبا على زيادة النسل ؟ كفرنسا على سبيل المثال .

ولماذا لا نسمع عن تحديد النسل فى البلد الذى اغتصبت أرضه من أهله وهو إسرائيل ؟

أم القصد أن ينتقص عدد المسلمين دون سواهم ؟

وهل هناك صلة حقيقية بين تحديد النسل والمشكلات الاقتصادية التى يصطنعها عالم الغرب ويغرق فيها معظم العالم الإسلامى والعالم النامى ؟

انى أدرك أن كلامى هذا سوف يكون شجى فى حلوق كثيرين من الدعاة إلى هذه المصيبة المسماة تحديد النسل ، وأدرك أنهم إن قرأوا هذا الكلام

فسوف يقرأونه ساخرين من كاتب لا يعرف – فى نظرهم – كيف تتغلب الدول النامية على ما يدعى بالمعادلة الصعبة – وهى زيادة عدد السكان عن معدل الانتاج فى بلد ما – ولكن ليظن من شاء ما شاء فأنا أتصور أن تحديد النسل تآمر على القوى البشرية وإيقاف لها عند حد القلة والضعف وبخاصة فى بلدان العالم الإسلامى ، ما أشك فى ذلك ولا أتردد والدلائل من حولى شاهدة معبرة .

ثم وجهت إلى المجتمع ضربة قاسية فى عاداته وتقاليده وآدابه العامة ، حاول بها الأعداء أن يغربوا مجتمعاتنا وأن يسعوا بها فى الطريق الذى يذيب كيان هذه المجتمعات ويحل عراها ويلقى بها ضحية مسلوبة الإرادة فى أحضان الحضارة الغربية .

فقد غربوا طريقتنا فى الطعام والشراب فأصبح كثيرون منه يأكلون بيسراهم ، ويحشدون على موائد الطعام ما هم فى غير حاجة إليه ويتزيدون ويبالغون ، ويجمعون إلى الطعام أشربة محرمة ، ويسرفون فيه متجاهلين موقف الإسلام من كل ذلك .

وغربوا طريقتنا فى اللباس والزى ، فأخذ الناس يلبسون من الملابس ما يكشف عوراتهم وما يصف أجسامهم ويشف عنها ، واختلط أمر اللباس فأصبح الرجال يقلدون فيه النساء والنساء يقلدن الرجال ، وأصبحت النساء بهذه الملابس كاسيات عاريات مائلات مميلات .

فاخترع لنا الأعداء احتفالات سموها أعيادا بقصد إغراق الأمة فى اللهو والباطل والتفاهات – فهذا عيد الأم وذاك عيد الأسرة وذلك عيد العمال ، وعيد كذا وعيد كذا ، بينما لا يعرف المسلمون من الأعياد إلا عيدين عيد الفطر وعيد الأضحى وما وراءهما زيادة لا تستهدف إلا شغل الناس بالتافه من الأمور وإلقائهم فى خضم التقليد وتيار الانجراف فى التبعية للغرب وحضارته .

وما داهية اختلاط النساء بالرجال إلا واحدة من حلقات هذا المخطط الرهيب المعادى للإسلام ، يحاول بها العدو أن يقضي على رجولة الرجال وأنوثة النساء ، ويصل بها من وراء ذلك إلى إشاعة التخنث والميوعة والتفاهة فى الرجال ، والترجل والتهتك والعرى فى النساء ، فتنسلخ شخصية المسلم من دينها ، وتندفع على غير وعى ولا هدى إلى تقليد الأوروبيين فى هذه الدواهى التى يحرمها الإسلام وتخالف روحه ونصوصه .

وليست السينما وما تعرضه من أفلام مثيرة للغرائز ومشجعة على العنف والسطو والانحراف ، وليست المسارح وما تعرضه من مسرحيات تتكشف فيها عورات النساء وتؤكد بها القيم الفاسدة وتتحدى بها سلطة الآباء والأمهات ، وسلطة المربين والقائمين بأمر التعليم ليس ذلك كله إلا صورة من صور المحاولة المستميتة لتغريب الحياة الاجتماعية فى المجتمعات المسلمة .

وعلى سبيل المثال : فإننى لا أجد تعليلا لعرض مسرحية «مدرسة المشاغبين» فى أكثر من بلد مسلم إلا دعوة إلى التمرد على سلطة القائمين على التعليم ، ودعوة مماثلة الى السخرية بهم والزراية بعملهم ، وإغراء الطلاب بهم ، وإلا فما هى الفائدة من عرض تلك المسرحية التى تختلط فيها الدعوة إلى التمرد بالدعوة إلى الجنس وإغراء الشباب بمشاكسة النساء وتتبع عوراتهن ، ما فائدة هذه المسرحية عند دعاة التقدم والتحضر والتغريب ؟

نحن فى انتظار العبقرى الذى سيجيب .

وما أمر هذا الاهتمام الزائد بالرياضة البدنية وأنديتها ؟

وما الهدف الحقيقى من وراء خلق التعصب لبعض الأندية الرياضية على بعض ؟

وهل هناك أدنى مصلحة اجتماعية أو سياسية من وراء جعل الناس فرقا

متضارية وأحزابا متعاركة من أجل انتصار فريق رياضي على فريق ؟

وهل القصد من ذلك قصد تربوى رياضي ينمى جسم الشاب وعقله وخلقه ؟

ولسنا بهذا من دعاة محاربة الرياضة البدنية . ولكننا ندعو إلى تطويرها واختيار الأنسب منها لتربية الجسم والعقل والخلق وصناعة الرجال فى إطار ما أحل الله للشاب المسلم من عمل ورياضة لا تورث الحقد ولا تعقب المشاحنات والمشاجرات ، ولا تجعل تكوين العضلات فى الجسم هدف الرياضى قبل تكوين الأخلاق .

أم أن وراء الاهتمام الزائد بالرياضة والأندية الرياضية المختلطة هدفاً كبيراً . وجزءاً من خطة تحاول إلهاء الشباب المسلم وشغله بالتافه المنحرف من الأعمال ؟

أما الحديث عن الملاهى والمراقص وعلب الليل ، وما يدور على شواطئ البحار « المصايف » ، فذلك محاولة جادة لطبع المجتمع المسلم بطابع المجتمع الغربى الذى لا يقيم وزنا للفضائل ولا يحترم الآداب

هذه بعض مظاهر حملة التغريب فى مجال الحياة الاجتماعية ، أتينا منها بالقليل الدال . ولم نقصد الاستيعاب والتوسع خشية أن نفيض فيما لا تتطلبه طبيعة البحث وحجمه .

وفى مجال نظم الحكم والسياسة والاقتصاد كانت خطة دعاة التغريب تقوم على اعتبار هذه الجوانب من الحياة أهم جوانب الحياة إيجابية وتأثيراً .

وقد خطط العدو ونجح فى تخطيطه لتصبح أنظمة الحكم فى أغلب بلدان العالم الإسلامى أنظمة غربية . ولتصبح القوانين والآداب التى تحكم العلاقة بين الناس بعضهم ببعض ، أو بين الناس وحكامهم قوانين غربية مستوردة غربية ومعادية

للإسلام وللمسلمين استهدف منها أصحابها أن تحل محل الشريعة الإسلامية والنظام الاسلامى .

وما المصارف ونظم تعاملها من حيث الربويات والفوائد والعمولات والمزايدات وغيرها إلا أنظمة قصد منها تحدى النظم الإسلامية فى التعامل بالمال . واستغلال حاجة الناس دون رحمة أو رعاية . وطبع المجتمع بطابع الغرب المادى الذى لا يقيم وزنا لحاجة المحتاجين . وإنما يقطع العلاقات الإنسانية التى يجب أن تسود المجتمع وتشوه إلى حد كبير النظرة التى يجب أن ينظر بها الحاكم الى المحكومين والمحكومون الى الحاكم . وليس لقيام الثورات الدموية الرهيبة والانقلابات العسكرية المدمرة من سبب أقوى من هذا القلق الذى تغرسه نظم الحياة الغربية فى نفوس الناس هنا وهناك .

وليس القضاء بين الناس والفصل فى خصوماتهم فى أغلب بلدان العالم الاسلامى إلا صورة من القضاء الغربى الذى يتجاهل القيم الإسلامية فى الفصل بين الناس فى خصوماتهم ومنازعاتهم .

وليست المجالس النيابية ووسائل ترشيح الناس لها وانتخابهم إلا صورة من صور الأنظمة الغربية التى تتجاهل خلق الإسلام وآدابه . وكذلك شأن المجالس النقابية وغيرها من المجالس .

والحق أن فرض النظم والنظريات على الناس وهى غريبة عنهم ولا تلائم فطرتهم التى فطرهم الله . ولا تتفق مع الإسلام الذى يدينون به . وعمل متبربر متوحش فيه من القسر والضراوة ما فيه .

وليس الهدف من تغريب نظم الحكم والسياسة إلا أن يعزل الإسلام عن قيادته الراشدة للحياة والأحياء . وأن تعطل الشريعة الإسلامية التى اختارها الله نظاما متكاملا تقوم عليه حياة الأمن والطمأنينة لكل الناس .

وهذا هو التغريب الذى نعنى . وهو فى الوقت نفسه من أخبث التيارات المعادية للإسلام وللمسلمين وهو حلقة من سلسلة كما ذكرنا فى صدر الحديث عن حملات التغريب بعد حملات التشويه .

الباب الثاني

ركائز الغزو الفكري وأدواته

وفيه فصول ثلاثة:

الفصل الأول

الركائز

الفصل الثاني

المنطلقات

الفصل الثالث

الأدوات

الباب الثاني
ركائز الغزو الفكري وأدواته

نحاول — فى هذا الباب من البحث — أن ندل على ركائز الغزو الفكرى وأن نعرّف بأدواته ووسائله ، وأن نتحدث عن الظاهر من هذه الركائز والوسائل . والخفى منها ، ورغبة فى أن نعرى هذه الركائز والأدوات عن أثواب الرياء والنفاق التى ترتديها ، وتحاول بها أن تبدو فى صورة البرئ ، فلعل هذا التعريف يكشف لجماهير المسلمين عن أعدائهم ، وينير أمامهم الطريق ، طريق العمل الجاد للإسلام ، العمل الذى نأمل أن يعيد إلى الأمة الاسلامية وضعها الصحيح بين الأمم . «**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**» .

ولا أدعى أنى فى هذا البحث سوف أستقصى أو أحصر حصراً دقيقاً كل مركز من هذه المراكز أو كل أداة من هذه الأدوات — لأن ذلك بحث مستقل إذا مد الله فى العمر وأعان — ولا أدعى كذلك أنى سوف أتوسع فى الحديث عن كل ركيزة من هذه الركائز وكل وسيلة من تلك الوسائل ، وإنما جهدى أن أعدد من هذه الركائز والوسائل ، ما أتيح لى أن أتعرف عليه . وأن أعرف بها تعريفا موجزا ، وآمل أن يتاح لى أو لغيرى من المهتمين بقضايا الفكر الإسلامى والأمة الإسلامية ما يزيد المسلمين بصرا ومعرفة بهذه الركائز والوسائل والأدوات المعادية للإسلام ، وما يكشف بدقة عن خبايا هذه الركائز وما تجنده من أعوان وأتباع .

هذه الركائز والادوات منطلقات خطرة لشن الغارات وراء الغارات على الإسلام فكرا وسلوكا ، وعلى المسلمين أفراداً وهيئات ، وعلى بلاد المسلمين وخيراتهم فى الحاضر والمستقبل .

وهذه الركائز كما بدت :

١ - الصهيونية أو اليهودية .

٢ - التبشير بالمسيحية فى المسلمين .

٣ - الاستعمار المتحالف مع الصهيونية والتبشير.

وأما المنطلقات فهى : المبادئ والنظريات المعادية للإسلام مثل :

١ - الديموقراطية .

٢ - الشيوعية والاشتراكية .

٣ - القوميات بأنواعها العديدة .

وأما الأدوات فهى : الفلسفات الهدامة التى تحركها وتتعاون معها فى أغلب الأحيان ركيزة أو أكثر من تلك الركائز التى أشرنا إليها آنفا ، وهذه الفلسفات أو المذاهب هى :

١ - الوجودية .

٢ - الفوضوية .

٣ - القاديانية أو الأحمدية .

٤ - البابية والبهائية .

٥ - الماسونية والروتارى وغيرهما .

فكل ركيزة من هذه الركائز - فيما يبدو لى - ركن عتيد ، تستعد فيه حملات الغزو الفكرى للعالم الإسلامى والمسلمين ، ثم تنطلق منه بعد أن تتزود بالخطة والأدوات والرجال والأموال والأعوان .

ولئن بدت هذه الركائز فى نظر بعضهم متعادية أو متخاصمة ، فقد يكون هذا صحيحا حينا ، وباطلا وخداعا حينا آخر . ولكن الأمر الذى لا تختلف فيه - ركيزة مع أخرى هو العداء الشديد للإسلام والمسلمين ، العداء الظاهر حينا والمستتر حينا آخر .

العداء الذى تشنه علينا أجهزة هذه الركائز ورجالها غير المسلمين حينا ، والذى تشنه علينا أجهزة ورجال مسلمون فى بعض الأحيان .

وإلى الحديث عن هذه الركائز .

الفصل الأول

الركائز

١ الصهيونية واليهودية

٢ التبشير بالمسيحية بين المسلمين

٣ الاستعمار المتحالف مع الصهيونية

والتبشير والاستشراق ضد الإسلام والمسلمين

الصهيونية واليهودية

فى مستهل الحديث عن هذه الركيزة ، أحب أن أنبه على أمر ذى أهمية وهو أن اليهودية والصهيونية شىء واحد أو وجهان لعملة واحدة كما يقال ، وليس من الصحيح ما يهذف به المضللون أو المضلون من أن اليهودية دين والصهيونية فكرة قومية سياسية ، إذ الواقع أن الصهيونية تخدم اليهودية وأن اليهودية لها نفوذها وسيطرتها على أولئك الصهيونيين سياسيين وغير سياسيين كما كشف عن ذلك بعض علماء السياسة فى أوربا نفسها .

فالصهيونية حركة خبيثة هدامة ، تستهدف القضاء على المبادئ والقيم وكل ما هو غير يهودى . ومن مراحلها محاولة إقامة وطن لليهود فى فلسطين المسلمة العربية ، وأما بقية مراحلها فهى خدمة اليهودية العالمية ، حتى يصبح العالم كله – مسلمون وغير مسلمين – فى قبضة اليهود وتحت سيطرتهم كما تزعم توراتهم التى زيفوها حيث تقول : «سيقوم الرب ويقيس الأرض ويحط عبدة الأوثان – الأمميين – تحت يد اسرائيل .. ويسلم جميع ممتلكاتهم إلى اليهود »[1] .

واذا كان بلفور سنة ١٣٣٦هـ الموافقة ١٩١٧م قد وعد اليهود بدولة فى فلسطين يحميها الانتداب البريطانى فإن الأمر فى معاونة اليهود على إنشاء تلك الدولة لم يقتصر على الإنجليز وحدهم ، وإنما قام الأمريكان فى ذلك بأوفى نصيب – وبخاصة اليهود منهم – وكذلك فعل الروس والفرنسيون وكثير من الدول المعادية للإسلام والمسلمين .

ولكى نتعرف على الصهيونية فى حجمها الصحيح وعلى الخطر الذى تدبره للإسلام والمسلمين ولشعوب الأرض جميعا – الأمميين – أود أن نقرأ هذه الكلمة التى اعترف بها اليهود أنفسهم فى مجلة لهم تسمى «مجلة الجامعة الإسرائيلية» أخذها : لويس داتس

---

(١) التوراة : سفر المزامير : مزمور ١٤٩ - ١٥٠ ط القاهرة .

« Louis Daste » مؤلف الكتاب : « اليهود والجمعيات السرية » حيث وضع تلك الكلمات على غلاف كتابه ونصها : « نصادف فى كل التغييرات الفكرية الكبرى عملا يهوديا ، سواء كان ظاهرا واضحا أو خفيا سريا . وعلى هذا فإن التاريخ اليهودى يمتد بامتداد التاريخ العالمى بجميع مجالاته ، حيث تتغلغل فيه بآلاف الدسائس »[1] .

ويكاد يكون بين الكتاب إجماع على أن اليهود مصدر الفتن والثورات والقلاقل فى كل مكان تناله أيديهم ، يقول فى ذلك : محمد عبد الله عنان : « يقرر الباحثون أن الدور الذى قام به اليهود فى بث روح الثورة وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة عظيم جدا ومؤكد جدا ، فهم دعاة الثورة وقادة التقويض ، وعنهم يقول الكاتب العظيم « برنارد لازار » : اليهودى يضطرم بروح ثورى وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أم لم يشعر ومما يؤكد نسبة أكثر الحركات الهدامة السرية لليهود أنه تظهر دائما فى هذه الحركات آثار التعاليم اليهودية الفلسفية »[2]

وهذه كلمة ثالثة « لسرجى نيلوس » الذى كتب عن اليهود وادعى أنهم سيقيمون دولة فى إسرائيل ، قبل قيام اليهود بتنفيذ ذلك بخمسين عاما على وجه التقريب .

يقول ذلك الكاتب : « ويستفاد من الصهيونية اليهودية السرية أن سليمان والعلماء اليهود من قبل قد فكروا سنة ٩٢٩ قبل الميلاد فى استنباط مكيدة لفتح كل العالم فتحا سلميا لصهيون .. »

وكانت هذه المكيدة تنفذ خلال تطورات التاريخ بالتفصيل وتكمل على أيدى رجال دربوا على هذه المسألة ، هؤلاء الرجال العلماء صمموا على فتح العالم بوسائل سلمية مع دهاء الأفعى الرمزية التى كان رأسها يرمز إلى المتفقهين فى خطط الإدارة اليهودية ، وكان جسم الأفعى يرمز إلى الشعب اليهودى ، وكانت الإدارة مصونة سرا عن الناس جميعا حتى الأمة اليهودية نفسها ، وحالما نفذت هذه الأفعى فى قلوب الأمم التى اتصلت بها سربت من

---

(١) د. أحمد شلبى : اليهودية : ٣٠٩

(٢) السابق : ٣٠٩ نقلا عن : محمد عبد الله عنان ـ تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة .

تحتها ، والتهمت كل قوة غير يهودية فى هذه الدول .

والأفعى لابد أن عملها متصل وأنها معتصمة اعتصاما صارما بالخطة الموسوية حتى يغلق الطريق الذى تسعى فيه بعودة رأسها إلى صهيون ، وحتى تكون الأفعى بهذه الطريقة قد أكملت التفافها حول أوروبا وتطويقها إياها ، وتكون لشدة تكبيلها أوروبا قد طوقت العالم أجمع ، وهذا ما يتم انجازه باستعمال كل محاولة لإخضاع البلاد الأخرى بالفتوحات الاقتصادية .

إن عودة رأس الأفعى إلى صهيون لا يمكن أن تتم الا بعد أن تنحط قوى كل ملوك أوربا ، أى حينما تكون الأزمات الاقتصادية ، ودمار تجارة الجملة قد أثرا فى كل مكان ، هناك ستمهد السبيل لإفساد الحماسة والنخوة – وللانحلال الأخلاقى ، وخاصة بمساعدة النساء اليهوديات المتنكرات فى صور الفرنسيات والإيطاليات ومن إليهن ، إن هؤلاء النساء أضمن ناشرات للخلاعة والتهتك فى حيوات المترعمين على رؤوس الأمم .

والنساء فى خدمة صهيون يعملن كأحابيل ومصايد لمن يكونون بفضلهن فى حاجة إلى المال على الدوام ، فيكونون لذلك دائما على استعداد لأن يبيعوا ضمائرهم بالمال ، وهذا المال ليس إلا مقترضا من اليهود ، لأنه سرعان ما يعود من طريق هؤلاء النسوة أنفسهن إلى أيدى اليهود الراشين ، ولكن بعد أن أشترى – هذا المال – عبيدا لهدف صهيون من طريق هذه المعاملات المالية[1] .

هذه هى الصهيونية أهم ركيزة من ركائز الغزو للإسلام والمسلمين ، تتخذ إلى ذلك كل سبيل وتسعى فى كل مجال مشوهة للإسلام تاريخه وحضارته ومفسدة للأخلاق ومصطنعة للمشكلات والمتاعب ومثيرة للفتن والثورات ومقتنصة للعديد من المسلمين تضمهم – على وعى منهم أو غفلة – إلى مؤسساتها ومنظماتها كالماسونية والروتارى وسائر الأنشطة الاجتماعية والرياضية .

وهى كانت ومازال معملا لتفريخ الأفكار الضارة والفلسفات الهدامة والمذاهب

---

(١) محمد خليفة التونسى : الخطر اليهودى : ٢١٤ – ٢١٥ ط بيروت الرابعة .

الضالة المنحرفة ، مع توجيه تلك الضربات إلى العالم الإسلامى أولا ، وإلى سائر الناس بعد ذلك ، وهى فى كل ذلك تتعاون مع سائر المراكز والركائز ، وتتقارب مع هذه المراكز وتتعاطف إلى حد أن كثيرين من اليهود وكثيرات من اليهوديات يدخلون فى أديان مختلفة عن دينهم زورا وخداعا من أجل الوصول إلى أهدافهم الخبيثة الهدامة التى تحدثنا عنها آنفا .

التبشير بالمسيحية بين المسلمين

كلمة التبشير تعنى – كما يفهم ذلك من معاجم اللغة – الخبر الذى يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة : عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشرة تغيرا ، وهذا يكون للحزن أيضا ، فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة فى القسمين »[1] .

وبعض علماء اللغة يرون أن الكلمة إذا أطلقت كانت للخير ، وربما حمل عليه غيره من الشر ، ويكون ذلك جنسا من التبكيت »[2] .

وقد أطلق هذا الاسم فى الكتب الحديثة على المنظمات الدينية التى تستهدف تعليم الدين المسيحى ونشره فى دولة ما .

وقد اهتمت الكنيسة بتوجيه جهودها إلى التبشير بالمسيحية فى العالم الإسلامى بالذات -- فى القرون الأخيرة – لتقتلع الإسلام من نفوس الناس وتحل المسيحية محله ، مما يطلق عليه عند بعضهم «حملات التنصير» يوضح ذلك المبشر «رايد» فى قوله : «.. إننى أحاول أن أنقل المسلم من محمد إلى المسيح ، ومع ذلك يظن المسلم أن لى فى ذلك غاية خاصة ، أنا لا أحب المسلم لذاته ، ولا لأنه أخ لى فى الإنسانية ، ولولا أنى أريد زجه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده »[3] .

ويقول : كارل بكر المبشر الألمانى : «ان الإسلام لما انبسط فى العصور الوسطى أقام سداً فى وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجان المسيحية »

ويكاد يجمع المبشرون فيما بينهم على الكلمة التالية التى جاءت على لسان المبشر

---

(١) الزبيدى : تاج العروس ٣ : ٤٥ ط الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ.

(٢) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ط الحلبى - مصر ١٣٨٩ هـ.

(٣) مصطفى الخالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار ١٩٢ ط بيروت .

جاردنر : «إن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف أوروبا» .

ويصرح لورانس براون بالهدف الحقيق للمبشرين من عملهم فى العالم الإسلامى حين يقول : «إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نقمة له ، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير»[1] .

وكل المبشرين وكل المستعمرين لا يخشون شيئا مثل ما يخشون الوحدة الإسلامية ، صرح بذلك المبشر القس سيمون حينما قال : «.. إذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوروبى ، ثم استطاع المبشرون أن يظهروا الأوروبيين فى غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسببا من أسباب وجودها[2] .

يعترف بهذه النوايا السيئة عن الإسلام والمسلمين عدد من المبشرين مثل : صموئيل زويمر الذى يقول : «لا ينبغى للمبشر المسيحى أن يفشل ، أو أن ييأس ويقنط عند ما يرى أن مساعيه لم تثمر فى جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية ، لكن يكفى جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم ، عندما تذبذب مسلما وتجعل الاسلام يخسره تعتبر ناجحا يأيها المبشر المسيحى ، يكفى أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا»[3] .

ويعترف بذلك مبشر آخر هو : أ.ل.شاتيليه فى مقدمة كتابه «الغارة على العالم الإسلامى» إذ يقول : «ينبغى لفرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنيا قبل كل شىء على قواعد التربية العقلية ، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته ، ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التى يقوم الرهبان المبشرون وغيرهم بها ، لأن لهذه المشروعات أغراضا اختصاصية ، ثم ليس للقائمين بها حول ولا قوة فى هيئتنا الاجتماعية التى من دأبها الاتكال على الحكومة وعدم الإقبال على مساعدة المشروعات الخاصة التى يقوم بها الأفراد فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام

---

(١) السابق : ٣٧ .

(٢) السابق : ٣٧ .

(٣) مولود قاسم : إنية وأصالة ط وزارة التعليم الأصلى بالجزائر .

الذى نحن نتوخاه ، وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذى يكون تحت الجامعات الفرنساوية نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة .

وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث فى دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية »[1] .

ويعود نفس الكاتب بعد سطور من هذا الكلام ليقول : «وكنا منذ أمد بعيد نود أن نخوض فى ذكر تفاصيل أعمال هذه الإرساليات التى اشتهرت بخطتها ووفرة الوسائل التى أعدتها وتوسلت بها لمقاومة دين الإسلام »[2] .

وفى نفس المقدمة يقول : «ولا ينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلامية ، وما يتبع ذلك الضعف من الانتقاض والاضمحلال الملازم له سوف يفضى – بعد انتشاره فى كل الجهات – الى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر »[3] .

ثم يواصل : «ولكننا نعود فنقول : إنه مهما اختلفت الآراء فى نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثانى من خطتهم وهو (الهدم) فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التى تبذل فى سبيل التربية النصرانية والتقسيم السياسى الذى طرأ على الاسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوروبية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لا يمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام فى حكم مدنية محاطة بالأسلاك الأوروبية .

قد يظهر لإخواننا المسلمين أننا نتصرف فى مستقبلهم بحرية وبدون تكليف ولكن من منهم ينكر أن العالم الإسلامى أصبح هدفا لغلطات فتيان جمعية الاتحاد والترقى ، الذين

---

١ - ٢ - ٣ - أ . ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى : ١٣ - ١٩ تعريب محب الخطيب ومساعد الباقى .

ورثوا عبد الحميد واستعانوا بوسائله السياسية بعد أن خلعوه ، ولم تكن أمامهم وسيلة لإنقاذ السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية غير تنظيم حكومة مؤلفة من ولايات إسلامية متحدة ، وكل وسيلة غير هذه كانت تؤدى إلى نتيجة لابد منها وهى تقسيم المملكة »[1] .

ويقول المستر « بلس » : « إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى أفريقية والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا »[2].

ولا أحب أن يفوتنى نقل جدول أعمال المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م ، فهو قادر على توضيح الصورة التى يضمرها التبشير للاسلام والمسلمين ، أكثر من أى بيان .

وهذا الجدول قد تناول بحث المسائل الآتية :

١ – ملخص إحصائى عن عدد المسلمين فى العالم .

٢ – الإسلام فى أفريقية .

٣ – الإسلام فى السلطنة العثمانية .

٤ – الإسلام فى الهند .

٥ – الإسلام فى فارس .

٦ – الإسلام فى الملايو .

٧ – الإسلام فى الصين .

٨ – النشرات التى ينبغى إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام .

٩ – التنصير .

١٠ – الارتداد .

---

(١) السابق : ٢٠ ـ ٢١ .

(٢) السابق : ٣٦ .

١١ - وسائل إسعاف المتنصرين المضطهدين .

١٢ - شئون نسائية إسلامية .

١٣ - موضوعات تتعلق بتربية المبشرين والعلاقات بينهم .

١٤ - كيفية التعليم فى الإسلام[١] .

ولعل فى هذه العجالة التى قدمناها عن التبشير ما يكفى للكشف عن نوايا المبشرين السيئة نحو الإسلام والمسلمين ، ولعل فيه كذلك إشارة ولو عابرة إلى أولئك الذين يدعون إلى التقارب بين الإسلام والمسيحية من المسلمين تنبههم إلى ما يجب أن يتنبهوا إليه من ذلك الخطر الداهم الذى يتهدد الإسلام والمسلمين من المبشرين بالمسيحية فى بلاد المسلمين .

ولا نستطيع أن نتجاهل أبداً أن التبشير كان الخطوة الأولى التى مهدت للاستعمار ومكّنته من الاستيلاء على بلاد المسلمين وتسخير أرضها وخيراتها وكثير من أبنائها لخدمة الأغراض السياسية والتبشيرية معا .

ومن هنا ندرك خطر هذا المركز فى بث حملات الغزو الفكرى المعادى للإسلام ودفع تيارات الحقد والدس والتشويه والتحريف نحو غايتها المرسومة لها .

---

(١) السابق ٠ ٥١ .

الاستعمار المتحالف مع الصهيونية
والتبشير والاستشراق ضد الإسلام والمسلمين

لا شك فى تحالف الاستعمار مع الصهيونية والتبشير والاستشراق وكل مذهب وفلسفة ، وكل جهاز ومؤسسة من أجل أن يصل إلى أهدافه وهى الاستيلاء على العالم الإسلامى استيلاء سياسياً حضارياً إن لم يتيسر الاستيلاء العسكرى .

ونعنى بالاستعمار فى هذا البحث : استعمار دول الغرب لدول الشرق أو للعالم الإسلامى بقصد الاستيلاء على خيراته وأهله وتوجيه كل ذلك لخدمة مصالح المستعمرين .

وليس الاستعمار حديث الميلاد - كما يتوهم بعض الناس - وليس وليد رغبة دول الغرب فى القضاء على دولة الخلافة العثمانية منذ قرنين من الزمان أو يزيد - كما يحلو لبعضهم أن يصوره - ليس هذا بصحيح ولا ذاك .

وإنما للاستعمار أبعاد وجذور امتدت فى ماضى الأمة الإسلامية ما يقرب من تسعة قرون من الزمان أى منذ الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامى بقيادة بطرس الراهب سنة ٤٨٩ هـ - ١٢٤٩ م الذى وقع أسيراً فى دار ابن لقمان بمصر ، والتى ما تزال دول الغرب حريصة على شب نارها حتى الآن ، كما أوضح ذلك القائد البريطانى أدموند هنرى ألنبى الذى قاد الحملة البريطانية من مصر لغزو فلسطين سنة ١٩١٧ م حيث استولى على بيت المقدس وقال كلمته المشهورة : «الآن انتهت الحروب الصليبية» وقد كوفئ من دولته بمنحه رتبة «فيلد مارشال» ولقب «فيكونت» .

فلا نبالغ حين نقول : إن الاستعمار امتداد للحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ، وأن أهداف الحروب الصليبية قد أودعت فى ثقة وأمانة فى أيدى المستعمرين ليحققوها ، ولقد اعترف بذلك بعض الكتاب الأجانب ، فهذا «رشتر Richter »

يقول : «جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدى المسلمين المتعصبين ، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك أروع العهود فى العصور الوسطى كلها ... ولكن ذلك الجهد قد خاب وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عنيدة من التعصب الإسلامى»[1].

وهذا «جاردنر Gairdner» يبدو أكثر صراحة من سابقه حيث يقول : «لقد خاب الصليبيون فى انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ليقيموا دولة مسيحية فى قلب العالم الإسلامى ... والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة (القدس) بقدر ما كانت لتدمير الإسلام»[2] .

ولم يعمل الاستعمار الحديث ضد العالم الإسلامى منفرداً وإنما اعتمد على الاستشراق من جانب وعلى التبشير من جانب آخر ، وقام هو بجهوده الخاصة من جانب ثالث فكانت للاستعمار مؤتمراته وندواته وأجهزته ورجاله وأعوانه .

ولننظر الآن فى محتوى مؤتمر استعمارى ألمانى ، تحدث فيه وسجل عنه كاتب يسمى : م . ك . اكسنفلد وهو صاحب التقرير المختص بالإسلام فى هذا المؤتمر وهو فى الوقت نفسه سكرتير جمعية التبشير فى برلين .

قال ذلك الكاتب عن المؤتمر الاستعمارى فى برلين : «إن المؤتمر الاستعمارى امتاز بميزتين : الأولى أنه بحث فى الشئون الصناعية والاقتصادية ، والثانية إجماعه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية فى سياسة الاستعمار الألمانى ، واستشهد بقول رئيس غرفة التجارة فى همبورج : أن نمو ثروة الاستعمار يتوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات ، وأهم وسيلة للحصول على هذه الأمنية إدخال الدين المسيحى فى البلاد المستعمرة ، لأن هذا هو الشرط الجوهرى للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية ، وحض السامعين على تقدير عمل المبشرين وإحلاله فى محله اللائق به .

---

(١) ، (٢) الخالدى وعمر فروخ : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية : ١١٥ .

وبحث أعضاء المؤتمر الاستعمارى فى شئون تتعلق بالتبشير فكفوا المبشرين مؤونة الكلام عن أعمالهم ، ولم يشترك هؤلاء المبشرون فى المداولات إلا عندما أخذ المؤتمر يبحث فى أعمال فرعه الرابع – الخاص بالمسألة الإسلامية – فأفاض المبشرون وتوسعوا فى القول حتى خيل للجميع أن المؤتمر الاستعمارى تحول إلى مؤتمر تبشير» [1] .

وتحدث بعده مبشر مستعمر آخر هو : بكر عضو مجلس المستعمرات فى همبورج فأوضح موقف الحكومة وسياستها وعلاقتها بالتبشير من المسألة الإسلامية ، فقال : «إن الحكومة لا بد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين فى المدارس العلمانية ما دام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، ونحن نعترف بهذه الحقيقة بالرغم من اعتقادنا بأن المدارس العلمانية تزيد الإسلام نمواً وارتقاء .

وإذا نحن طالبنا الحكومة بتقدير مقاصدنا فيجب علينا بداهة أن ندرك أهمية هذه المعضلة من حيث واجبات الحكومة ومصالحها أيضاً» [2] .

ومن أهم قرارات هذا المؤتمر الاستعمارى الألمانى ما ننقله الآن : –

١ – إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، ولذلك فإن المؤتمر الاستعمارى ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة .

٢ – المؤتمر الاستعمارى – مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماماً فى الشئون الدينية .

٣ – يشير المؤتمر على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التى تبث مبادئ المدنية خصوصاً بخدماتهم التهذيبية والطبية

٤ – من رأى المؤتمر أن الخطر الإسلامى يدعو إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ

---

(١) أ ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى : ١٣٦ .

(٢) السابق ٣٦ .

التدابير– من غير تسويف – فى كل الأرجاء التى لم يصل إليها الإسلام بعد .(١)

وقد استطاع الاستعمار أن يخرب فى البلدان الإسلامية ما وسعه التخريب ، ولجأ فى ذلك إلى حيل وأساليب عديدة .

فتدخل الاستعمار بنفوذه وسلطانه لحماية المبشرين وتبرير إفسادهم لعقائد الناس ، وكأنه بذلك يرد لهم اليد التى سلفت لهم عنده .

واستطاع الاستعمار أن يشجع كثيرين من المسلمين على اعتناق الدين المسيحى ، وعلى حمل الجنسية الأجنبية ، ورتبت على ذلك كثيراً من الامتيازات .

وأعان الاستعمار الطوائف التبشيرية اليسوعيين والجزويت ، وغيرهما من الطوائف على أن يقوموا بما قاموا به من إفساد وتشويه – مهما غلفوا ذلك بأغلفة من المساعدات والخدمات .

واستطاع الاستعمار أن يصطنع الأسباب لإثارة الفتن والحروب والقلاقل فى البلدان الإسلامية ، وبخاصة البلاد التى يحس المستعمرون أن تجمع المسلمين فيها – يثير سخطهم مثل تركيا ، ومصر والمغرب العربى ومنطقة الشام والجزيرة الفراتية . فقضى الاستعمار بأساليبه الخبيثة على الاستقرار فى هذه الأماكن وجعلها بركاناً يغلى .

واستطاع الاستعمار فى سبيل إضعاف المسلمين وحصرهم وحصارهم أن يقصيهم عن الشواطئ والثغور كما صرح بذلك شعيا يومان مؤلف كتاب : الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى .

واستطاع الاستعمار أن يقضى على معنويات المسلمين وأن يشعرهم بأنهم غرباء فى بلادهم ، بما منحه من امتيازات للأجانب جعلتهم كأنهم أصحاب البلاد الأصليين .

واستطاع الاستعمار أن يقيم من الإدارات السياسية فى داخل بلاد المسلمين ما يطبق عن طريقه سياسته الرامية إلى القضاء على كل نزعة إسلامية أو دعوة إلى توعية المسلمين أو حركة استقلالية .

---

(١) السابق : ١٣٧ ـ ١٣٨ .

واستطاع الاستعمار أن يصبغ حياة المسلمين بصبغة الحضارة الغربية ، فيحول كثيراً من المسلمين إلى أعوان وأتباع لهذه الحضارة وأهلها .

واستطاع الاستعمار أن يشجع الدعوات القومية كالطورانية والفرعونية والفينيقية والبابلية والأشورية والبربرية والقومية العربية ، وكل هذه الدعوات إخمال لفكرة تجمع المسلمين حول الإسلام وليس القوميات .

وعن طرق أخرى عديدة استطاع الاستعمار أن يحارب الإسلام والمسلمين .

فعن طريق الدعوة إلى التطوير الاجتماعي للناس ومنحهم المعونات والمساعدات ومد يد الإحسان إليهم .. استطاع أن يستعبد النفوس ويشترى الذمم ، وفى إنشاء المدارس المغرضة والمشافى ودور العجزة وكبار السن ، وفى إنشاء النوادى الاجتماعية والرياضية وتنظيم جمعيات الشبان والشابات فى كل ذلك استطاع الاستعمار أن ينفذ إلى أغراضه وأن ينفث سمومه .

واتخذ وسائل أخرى للوصول إلى أهدافه المعادية للإسلام والمسلمين ، مثل السيطرة على التعليم وعلى الثقافة وعلى وسائل النشر والإعلام ، وعلى عديد من الكتاب والأدباء .

وهكذا استطاع الاستعمار متعاوناً مع الركائز الأخرى المعادية للإسلام ، ومنفرداً بخططه وأساليبه ، استطاع أن يكون من أخطر المراكز التى تتبنى الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ، وتدفع فى تيارات العداء أسوأ ما يحمله تيار إلى من يصل إليهم .

الفصل الثانى

المنطلقات

النظريات والمبادئ المعادية للإسلام

١ الديمقراطية

٢ الشيوعية والاشتراكية

٣ القوميات بأنواعها العديدة

النظريات والمبادئ المعادية للإسلام

أعنى بهذه النظريات والمبادئ ، ما أصبح شغل الناس اليوم وموضع جدلهم وخصامهم مما يسمونه : الديموقراطية والرأسمالية والشيوعية والاشتراكية وما يتفرع عن ذلك من نظم ، وما كان كالأصل لهذه المبادئ من فلسفات .

فهذه المبادئ والنظريات التى ذكرت تعادى الاسلام بما تشتمل عليه من نظم لا يعترف بها الإسلام ، وبما ترتكز عليه من أسس يحرمها لما تجلبه للناس من مضرة ولما تحرمهم به من منفعة .

فأغلب ما فى هذه النظريات والمبادئ من نظم يستهدف تحقيق مصلحة فريق من الناس على حساب فريق ، ولا يقيم وزناً للقيم الخلقية ولا للآداب التى يجب أن يتحلى بها الإنسان الراشد المستنير ، وكل ما يؤدى إلى ذلك فهو فى الإسلام محرم وخبيث .

فلا النظام الرأسمالى أو الحر – كما يقولون – وما يعيش فى ظله من ديموقراطيات ، ولا النظام الشيوعى أو الاشتراكى وما يعايشه من حتميات وصراعات ، ولا الفلسفات القائمة على أساس المبالغة فى تقدير قيمة الإنسان وتفضيله على الدولة ولا نظيرتها التى تبالغ فى سحق الإنسان وإهدار حقوقه باسم الدولة ، لا هذه الأنظمة ولا تلك يمكن أن تتفق مع الإسلام ومنهجه العادل الحكيم فى تحقيق مصلحة الناس أجمعين وغرس الفضائل والآداب فى نفوسهم ووضع الإنسان والدولة كل منهما فى حجمه الصحيح ، ووضعه السليم ، ومن هنا يكون العداء والصراع بين هذه النظم والنظريات وبين الإسلام .

وليس لهذه النظريات والمبادئ من هدف أكبر ولا أجل من أن تجد لها من الأعوان والأنصار من يطبقونها على أبناء الأمة الإسلامية فيباعد بها بين المسلمين ودينهم ويقارب بها بينهم وبين النظريات والمبادئ المعادية لهم ، وهم بذلك يحققون كسباً فى اتجاهين خطيرين : -

الأول : إقصاء المسلمين عن دينهم ومنهجه ونظامه .

والثانى : تحويل ولاء المسلمين عن دينهم إلى تلك النظريات والأنظمة والمبادئ .

ولقد كان -- وما يزال - الهدف الأول من هذين هو شغل أعدائنا الشاغل ، لأنه بالضرورة يؤدى إلى الوصول إلى تحقيق الهدف الثانى ، لذلك يبالغون فى إغراق العالم الإسلامى فى خضم هائل من النظريات والمبادئ والنظم والقوانين الوضعية .

الديمقراطية

ففى ظل النظام الديموقراطى الذى يتغنى به كثير من الناس عارفين وغير عارفين ، والذى يراه بعضهم أمل الإنسانية المنشود ، وفردوسها الأرضى - كما يقولون - فى ظل هذا النظام ومع تطبيق مبادئه وقوانينه ينظر المسلم الواعى الفاهم لدينه ومنهج هذا الدين فى الحياة فيجد فى الديموقراطية عيوباً صارخة تعود بالضرر على الفرد حيناً وعلى المجتمع حيناً آخر .

وهى عيوب نعد منها - فى مجال هذا البحث - ولا نعدها ، فمن ذلك افتراض الديموقراطيين أن الجماهير هى مصدر السلطات وأن الشعب له السلطة الكلية والسيادة المطلقة .

هذا الافتراض عاجز قصير النظر سقيم الإدراك لا يعدو أن يكون خداعاً للجماهير وتمويهاً على الشعوب ، فما دام الإنسان فى ذاته - بحكم خلقته وفطرته - غير مستقل بأمره كله فى هذه الحياة التى يحياها ، بل يستحيل عليه بحكم سنن الكون ونواميسه أن يستقل بكل أمره فكيف بمجموعة متألفة من هؤلاء الأفراد يمكن أن تكون أهلاً للسلطة الكاملة والسيادة المطلقة ؟

ومن أجل هذا التناقض فإن الديموقراطية بعد تطبيقها وتهليل الغافلين لها تنتج واحداً من شكلين اثنين لحكم هذه الجماهير كلاهما أسوأ من أخيه . فإما أن يؤدى نظامها إلى تركيز السلطة فى أيدى قلة من الواعين المدركين أهل الرأى والقدرة فتصبح الدولة حينئذ دولة هؤلاء الممتازين وحدهم ، وإما أن تتركز السلطة فى أيدى أصحاب رءوس الأموال ، وكلا الأمرين أضر بالإنسان من الثانى .

والحصيلة فى كل من الأمرين أن الجماهير ليست مصدر السلطات وأن الشعوب ليس لها

لسلطة الكاملة ولا السيادة المطلقة ، وإنما السلطات والسيادة فى أيدى هذه القلة ، كما هو مشاهد فى كل الدول التى تطبق النظام الديموقراطى .

وكيف يقبل الإسلام أن تقوم حياة الناس على أن تستغل طبقة منهم سائر الطبقات ؟ وكيف يقبل الإسلام أن يميز بين الناس ويفاضل بغير التقوى والعمل الصالح ؟

ومهما حاول الديموقراطيون أن يصوغوا نظماً وأن يسنوا من قوانينهم الوضعية ما ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم فإنها محاولات جديرة بالفشل والتخبط لأنها تقيم أسسها على أرض غير صالحة وتبنى مبادئها على افتراضات غير صحيحة .

أما الإسلام فإن قوانينه ونظمه ومنهجه كلها من صنع الله سبحانه ، رب الناس العالم بما يصلحهم ، وهى قوانين ونظم لا تفترض فى الإنسان ولا تخدعه بأنه صاحب الاستقلال التام بحياته وصاحب السلطة الكاملة والسيادة المطلقة ، إذ يصرح الإسلام فى هذا المجال بأن الأمر كله لله والسلطة كلها له ومنه يستمد الإنسان السلطة والأمر وفق الشرع الذى أوحاه إلى رسوله ووفق القوانين التى فصلها من لا ينطق عن الهوى ، صلوات الله وسلامه عليه ، فالإنسان مقيد بهذا الشرع وفى هذا التقيد به كل خير له فى دنياه وآخرته .

والديموقراطية تقع فى تناقض حاد حين تدعى أنها بنظمها تحقق مصالح الجماهير كلها ، فما دامت هذه المصالح متضاربة بين فئة وأخرى من فئات هذه الجماهير فهذا التضارب الذى تعجز عن حله ، فلو تجاهلت هذه المصالح المتضاربة فقد تجاهلت مصالح الجميع ، ولو عنيت بمصالح البعض دون البعض فذلك ظلم اجتماعى ليس له ما يبرره ، وهو الذى سيؤدى إلى الطبقية والامتيازات كما هو مشاهد الآن .

والديموقراطيون يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس عندما يتصورون مجالسهم النيابية التى تنتخب لتمثيل طبقات الشعب تعبر فعلاً عن مصالح الشعب !!!

فهؤلاء المنتخبون سياسيون محترفون كل همهم أن يحققوا مصالحهم الشخصية ومصالح ذويهم وطبقاتهم دون بقية المصالح ، والبارع من هؤلاء السياسيين هو من يخدع هذه الجماهير عن نفسها ويخدرها بإعلان البرامج والوعود ، ولنا على ذلك ألف شاهد وشاهد فى عالمنا المعاصر .

الشيوعية والاشتراكية

وكذلك الشأن فى النظريات والمبادئ الشيوعية أو الاشتراكية ، فهذه النظريات وإن كان أصحابها أكثر كلاماً وضجيجاً ودعاية وإعلاناً ، وأكثر قدرة على انتقاء الكلمات الفخمة الضخمة والعبارات الطنانة الرنانة إلا أنها تقوم – فى الواقع – على خدمة طبقة بعينها ، مهما تشدقت بكلمات الشعوب والجماهير والمكاسب والانتفاضات والثورات والتقدميات والطلائعيات وأى مكاسب تلك التى تحرم الإنسان من رغبته الفطرية فى أن يتملك ثمرة عمله وجهاده ؟

أى تقدمية تلك التى تحرم على الإنسان الحرية فى أى شىء ؟

إن الإنسان فى ظل هذا النظام مسحوق فعلاً بين المطرقة والسندان مطرقة الفئة الحاكمة المختارة من الحزب الواحد وسندان القاعدة الواسعة للحزب ، والإنسان فى ظل هذا النظام لا يستطيع أن يفكر ولا أن يعمل ولا أن يعبر إلا فى الإطار الذى يرسم الحزب أبعاده – وما ترتئيه الأطر المنبثقة عن الحزب الواحد المتسلط المستغل المهين لكرامة الإنسان هو المجال الوحيد الذى تتحرك فيه الفكرة أو الكلمة أو أى نوع من العمل ، ومن فكر فى غير هذا – وما أقل المفكرين – اعتبر من الثورة المضادة وسحقته المطرقة على السندان ، ومئات الضحايا من هؤلاء يعدون معوقات لمكاسب الشعب يجب أن تزول من الطريق لتندفع الطلائع التقدمية نحو مزيد من المكاسب الجماهيرية الشعبية ! ! !

وما وقع نظام من النظم فى تناقض صارخ كما وقع النظام الشيوعى والاشتراكى ، فالتناقضات التى وقع فيها هذا النظام كافية لمحق مبادئه ونظرياته وما يدعو إليه ، فلم يحقق الشيوعيون ولا الاشتراكيون نجاحاً فى أخص ما يدعون إليه وهو النظام الاقتصادى وملكية الدولة لوسائل الإنتاج فإن التخبط فى هذا المجال بلغ مداه حتى لتوشك هذه النظرية أن تعلن على الملأ إفلاسها .

ولم يكن فشلهم فى الاجتماع والسياسة بأقل من فشلهم فى الاقتصاد وتوجيه رأس المال ، وكم قرأنا وسمعنا عن الرغبة فى العودة لنظام الأسرة بعد إلغائه وإلى تشجيع العمال بالحوافز الإنتاجية ليجيدوا أعمالهم ، وكم سمعنا عن دولة تبنت النظام الشيوعى أو الاشتراكى ثم انقلبت عليه أو عدلت فيه ووقفت تناهضه وتعاديه ! ! !

وليس فيما رآه «هيجل» ولا ما تابعه أو خالفه فيه «كارل ماركس» غناء أو نفع للإنسان ، فليست العملية الجدلية عند هيجل ولا المادية التاريخية أو الجدلية عند ماركس بخارجة عن نطاق ينتج نتيجتين اثنتين يتغنى بهما أتباع هذه النظريات بينما لا تستساغ واحدة منهما فى عقل عاقل ، فضلاً عن مصادمتهما للدين والأخلاق والنظم الاجتماعية الراشدة .

وأولى هاتين النتيجتين أن الدين والأخلاق والفضائل والعلم والفلسفة مظاهر للروح العالمية السائدة فى عصر من العصور (فلا إله ولا خالق ولا وحى ، ولا أنبياء ولا مرسلين ولا .... ولا .... الخ) .

وثانى هاتين النتيجتين : أن مدنية «ا» عندما تنضج وتبلغ رشدها يتولد عنها طائفة ذات ميول وأفكار جديدة تصارعها وتحاربها وتتنكر لكل معطياتها ثم تأتى هى بالجديد (فلا ثبات ولا استقرار ولا اعتراف بخالق ولا رب ولا خلق ولا فضلية ولا .... ولا .... الخ) .

وقد زاد أتباع ماركس على هاتين النتيجتين نتيجة ثالثة ملخصها أن الدين والخلق والقانون متولد أبداً عن النظام الاقتصادى لمجتمع ما من المجتمعات (فلا إله ولا خالق ولا دين ولا خلق ولا .... ولا .... الخ) .

هذه هى النظريات والمبادئ الشيوعية والاشتراكية فى كلمات فقط وتلك هى مناقضاتها للإسلام ، وهذه حربها للإسلام والمسلمين ما يجهلها أحد من الناس الذين يتابعون الأحداث ويرقبون أعمال أصحاب هذه النظريات .

فهى إذن من أخطر المراكز التى تنطلق منها حملات الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين ، وتتخذ منها تيارات العداء للإسلام زادها وتستمد منها قوتها ووحشيتها فى تسديد الضربات للفكر الإسلامى وللمجتمعات الإسلامية فى كل مكان تناله أيديهم .

القوميات بأنواعها العديدة

القوميات التى تعصف بالعالم الإسلامى اليوم ، بل بكثير من بلاد العالم ، ليست إلا وليدة النظرة الضيقة للحياة والأحياء ، وهى وإن حملت فى ظاهرها رغبة أصحابها فى أن يكون لهم كيان خاص ومصلحة خاصة إلا أنها تنطوى على نزعة تعصبية عرقية عطلة تتجاهل أبسط المسلمات عند الناس وهى أن الناس جميعاً لآدم عليه السلام .

ولندع جانبا التطور التاريخى للقوميات لأن ذلك يخرج بنا عن موضوع البحث ، ولنكتف بالنظر فى هذه القوميات فى هذين القرنين من الزمان الذى نعيشه كما جعلنا ذلك اطاراً زمانياً للبحث .

فالقومية المعاصرة صدّرها لنا مفكرو أوروبا وسيلة من وسائل الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين ، وهى تعنى عندهم : رفع شعار وطنى يتمكن به جمع من الناس من أن يتوحدوا عليه فى ظل حكومة مركزية ، كما فعل نابليون عندما استحدث القومية الإيطالية والقومية الألمانية ، وهو أمر أدى فى نظر المفكرين إلى تفكيك الوحدة الأوروبية الموروثة عن الإمبراطورية الرومانية . هذه الوحدة الأوروبية التى حافظت عليها ورعتها الكنيسة الكاثوليكية طوال ما يعرف عندهم بالقرون الوسطى والحق أن شعار القومية وشعار الوطنية شىء واحد .

وأول ما غزت هذه الفكرة القومية العالم الإسلامى فى العصر الحديث كان فى عهد نابليون كذلك ، حيث عانت جنوده فى مصر من حرب ترفع شعار : «الله أكبر والعزة للمسلمين» ، فلم يجد نابليون حلاً لهذه الوحدة إلا أن يخرج على الناس – بوساطة العلماء المستشرقين المصاحبين لحملته على مصر – بفكرة القومية ليفتت بها وحدة الأمة الإسلامية .

فتركزت خططهم على الادعاء بأن العثمانيين ليسوا إلا شعباً آخر غير الشعب المصرى وأن

هذا الشعب التركى لا يربطه بالمصريين إلا الدين – والدين ليس له أن يتعدى الطقوس إلى النواحى السياسية ـ واهتم الفرنسيون حينذاك بإقناع الناس بأن دولة الخلافة العثمانية دولة استعمارية جاهلة متخلفة .

ويؤكد الدكتور فيليب حتى العربى اللبنانى المسيحى الموالى لحضارة الغرب المعادى للإسلام وأهله ، يؤكد أن القوميات وافدة علينا من الخارج حيث يقول : «كان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والتاج الفكرى الغربى أن تولدت مبادىء القومية لعربية الشاملة ، واستمدت وحيها بالأكثر من النظريات السياسية الأمريكية ، بخلاف لقومية التركية التى جاءت متأخرة عن العربية والتى استمدت الهامها من مبادىء الثورة الفرنسية .

ولقد كان ظهور مبادىء القومية العربية فى العقد السابع من القرن الفائت (العقد التاسع من القرن الثالث عشر الهجرى) على يد رجال الفكر السوريين وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا فى المدارس الأمريكية فى بلادهم»[1] .

ويعود فيؤكد هذا الاستيراد فيقول : «ومما لا ريب فيه أن القومية إنما هى بضاعة غربية استوردها العالم بما فيه الشرق العربى من أوربا»[2] .

ويكشف عن خبايا هذه القوميات وتأثرها بأوربا المسيحية ورغبتها فى إقصاء الإسلام عن حياة المسلمين ، الكاتب المعروف بصليبيته «حازم نسيبه» : حيث يقول : «بدأت فكرة القومية العربية فى أوساط المثقفين المسيحيين قبل أن تبدأ عند المسلمين .. إذ كان المسيحيون على صلة وثيقة بالثقافة الغربية ، وأقرب إلى التأثر بتياراتها وسبق لهم أن اطلعوا على التاريخ العربى من خلال الدراسات الغربية الحديثة .

وقد انصب المستشرقون فى القرن التاسع عشر بكل قواهم على بحث النواحى الدنيوية أكثر مما اهتموا بالنواحى اللاهوتية من التاريخ العربى الذى أظهر أن الامة العربية أقامت

---

(١) فيليب حتى : العرب : تاريخ موجز : ٢٥٦ .

(٢) السابق : ٢٥٧

حضارة متقدمة راقية قبل الإسلام وبعده على السواء ، وبهذا لم تكن الحضارة العربية إذن حادثاً دينياً صرفاً لا يملك العرب والنصارى أن يشاركوا فيه ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أن لتلك الحضارة ملامح منقطعة الصلة بالدين كما أثبت الواقع الذى انصب الباحثون الغربيون على كشفه »[1] .

فالقوميات المصطنعة بشكولها وألوانها فى العالم الإسلامى كله كالطورانية والفرعونية والفينيقية والبربرية وغيرها ما هى إلا معاول هدم للإسلام وللوحدة التى يقيمها بين معتنقيه ويجعلها أكبر وأجل من روابط الجنس واللون والإقليم واللغة ، وهذا هو هدف الذين يصطنعون هذه القوميات .

ومن عجب أن يستجيب بعض المسلمين لهذه الدعوات الهدامة ويجندون أقلامهم وجهودهم لها .

فهذه القوميات من أخطر مراكز الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين فى عصرنا هذا .

---

(١) القومية العربية فكرتها — نشأتها — ترجمة عبد اللطيف شرارة .

الفصل الثالث

الأدوات

الفلسفات الهدامة

1. الوجودية
2. الفوضوية
3. القاديانية أو الأحمدية
4. البابية والبهائية
5. الماسونية والروتاري

الفلسفات الهدامة

هذه الفلسفات تؤثر فى الركائز التى تحدثنا عنها كالصهيونية والتبشير والاستعمار والنظريات والمبادئ الهدامة ، ثم تتأثر بها فى كثير من الأحيان فتخدم أهدافها وتعين على الوصول إليها ، وهى فى بعض الأحيان تغذيها وتوجهها وتوضح لها الطريق .

وقد يبدو للناظر أن هذه الفلسفات وما تردده من أفكار وما تروجه من أزياء الفكر والسلوك بمعزل عن تلك الركائز والوسائل المعادية للإسلام ، والحق أن هذه الفلسفات من تلك الركائز ، وتلك الركائز من هذه الفلسفات ، ما يجهل ذلك من مثقفى المسلمين أحد .

وإذا كانت بعض هذه الفلسفات تستهدف تحطيم القيم الخلقية فى الناس ، والقضاء على نوازع الخير فيهم ، فإن أغلب هذه الفلسفات تقف من الإسلام موقفاً واحداً هو العداء والرغبة الشديدة فى صرف الناس عنه بما تبتدع لهم من أفكار وما ترغبهم فيه من أنماط سلوكية تقتلع من نفوسهم الإيمان بالله والإيمان برسله وأنبيائه ، بل تقتلع منهم الاحترام لأى فضيلة نادى بها الإسلام ، وتزيف عليهم الأمور فتقلب لهم الحق باطلاً والفضائل رذائل .

ومن أبرز هذه الفلسفات الهدامة والمعادية للإسلام والمسلمين — فيما أرى — الوجودية .

فلنلق عليها بعض الضوء فى هذه السطور .

الوجـــودية

وهى فلسفة مليئة بالتناقض خارجة على حدود كثير مما يقره العقل ويرضاه المنطق ، فضلاً عن مخالفتها لما جاء به الإسلام من منهج رضيه للناس ديناً ونظاماً فى حياتهم الدنيا ، فالوجودية من هذه الزاوية تعد من أهم المراكز التى تحارب الإسلام بإشاعة مبادئها الضارة المنحرفة ، المناقضة للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها .

فالوجوديون – على اختلاف ما بينهم – يتفقون جميعاً على مبدأ واحد هو تقديس حق الفرد وحمايته من طغيان الجماعة عليه ، بعد ظهور الديموقراطية الحديثة ، ثم ظهور الشيوعية والفاشية فى العهد الأخير ، وهم يبنون مبدأهم هذا على اعتبارهم أن الفرد هو الموجود الحقيقى فى الخارج ؛ وأن النوع الإنسانى لا وجود له إلا فى عالم التصور والفروض الذهنية ...

وتقديس حق الفرد هو الجانب السليم فى الوجودية ...

أما السخف والمرض فإنما يظهران عند الانتقال من تقرير وجود الفرد إلى النتائج التى تترتب على هذا فى اعتقادهم ، ثم يبلغ السخف غايته حين يخلطون بين وجود الفرد وغاية الوجود كله ، ومنهم من يقول : إن الوجود كله عبث لا معنى له على الإطلاق ولا غاية من ورائه لمخلوق ولا لخلاق .

يظهر السخف والمرض حين يقولون أن الفرد هو الموجود الحقيقى ويرتبون على ذلك أنه لا معنى إذن للقول بالطبيعة البشرية والقول بالأخلاق التى تفرضها هذه الطبيعة ، أو بالأقدار التى رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود »[1] .

---

(١) عباس محمود العقاد : بين الكتب والناس ٢٦ ط بيروت ١٩٦٦م .

ثم يتحدث العقاد عن الوجودية فى روسيا والوجودية فى فرنسا ويوضح بينهما فروقاً هامة ، ثم يخص وجودية فرنسا بحديث فيقول : « إنما وجدت فى فرنسا مدرسة الوجودية الإباحية إلى جانب الوجودية الأخلاقية لأسباب غير تلك الأسباب التى أشرنا إليها ، وهى الأسباب التى لا مشابهة فيها بين نشأة الوجودية الروسية ونشأة الوجودية الفرنسية .

وجدت تلك المدرسة الإباحية لأسباب يتعلق بعضها بفرنسا ويتعلق بعضها الآخر « بسارتر » إمام تلك المدرسة .

أما الأسباب التى تتعلق بفرنسا فهى الولع « بالزى الموسمى » الذى يتخذ صورة النحلة الاجتماعية ، كما لحظناها فى المقالين السابقين .[1] .

وأما الأسباب التى تتعلق « بسارتر » فهى اختلال تكوينه واتصال نسبه بالصهيونية . فى تكوينه دلائل اختلال تبدو أعراضها فى شىء كالشلل يعترى شقه الأيمن ، وهو فى نسبه نصف يهودى أو أكثر من نصف يهودى - لأن أمه يهودية ومعظم أيامه يقضيها بين اليهود ، وله عناية شديدة بالدفاع عن السامية والحملة على حركة المقاومة لها ...

ذلك هو فحوى الفارق بين وجودية تخرج إلى التصوف كما خرج « برديف » ووجودية تخرج إلى الإباحية كما خرج سارتر ، ولن تفهم المدارس الحديثة فى أوربا ما لم تفهم هذه الحقيقية التى لا شك فيها ، وهى أن أصبعاً من الأصابع اليهودية - كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان عليه .

فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الأخلاق والآداب وتقوض دعائم الأوطان والأديان .

---

(١) مقال : المدارس الأدبية فى الغرب ومقال الوجودية - الجانب السليم منها .

واليهودى دور كايم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب .

واليهودى - أو نصف اليهودى - سارتر وراء الوجودية التى نشأت معززة لكرامة الفرد فجنح بها إلى إباحة حيوانية تصيب الفرد والجماعة معاً بآفات القنوط والانحلال »[1] .

فالوجودية إذن مركز خطر من مراكز الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ، تمد تيارات العداء للإسلام بكل المقومات التى تدفع به نحو غايته .

---

(١) السابق ٣١ ـ ٣٣ .

الفوضـــوية

وهى من الفلسفات الهدامة المعادية بذاتها ومبادئها لكل نظام وكل قانون . والتى تقف من الإسلام بوصفها ذاك موقف العداء والتحدى . وقد بلغ من سفه ما تنادى به أنها لاتعترف بنظام إذ ترى الدولة أداة للاستبداد بالأفراد فى أى نظام اجتماعى . ولذلك تنادى بضرورة مقاومة الدولة والأنظمة التى تنبثق عنها فى صورة فوضوية لها من اسم هذه الفلسفة نصيب أكبر نصيب .

ولقد يتصور أن الفوضوية وهى تنادى بتقويض الدولة وإلغاء أنظمتها إنما تفعل ذلك محافظة منها على الفرد وحقوقه ...

ولكن هذا التصور يذهب هباء حينما نعلم أن الفوضوية تنادى بأن الملكية الفردية مبعث الظلم وأنها من أجل ذلك تطالب بإلغاء الملكية الفردية الغاء تاماً ! ! !

وهذا أعجب العجب فيما ينادى به مذهب فلسفى حين ينادى بإلغاء الدولة لأنها تستبد بأنظمتها بالأفراد وبإلغاء الملكية الفردية لأنها مبعث الظلم .

ومن بين ماتنادى به الفوضوية الثورة على كل سلطة منظمة . وتحدى كل قانون ونظام .

والفوضويون يقولون – على الرغم من كل مادعوا إليه – يقولون بأنه لاوجود للحرية الكاملة .

ويقولون بأن العدالة المطلقة لايمكن أن تتوفر فى ظل نظام يقوم على

فكرة الدولة والملكية الفردية .

نعم إنها فوضى حقيقية تدعو إليها هذه الفلسفة وبعض الباحثين يعتبرون الفوضوية مذهبا سياسيا واقتصاديا متطرفا[1] .

والحق أنها فوضى وكفى .

ومما هو قريب من الفوضوية مايدعو إليه الآن بعض العابثين بالشباب ومستقبله من العرى والخنفسة وتخنث الرجال وترجل النساء . وكل شاذ غريب مما يشوه إنسانية الإنسان ويباعد بينه وبين التكريم الذى خصه به الله سبحانه من بين سائر مخلوقاته .

هذه الفلسفات والمذاهب معاول هدم لكل فضيلة وحرب على الأديان وعداء سافر للإسلام والمسلمين . وهى من أخطر مراكز الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام .

---

(١) الموسوعة العربية الميسرة : ١٣٣٤ .

القاديانية أو الأحمدية

وهى من المذاهب الهدامة للإسلام التى اصطنعها أعداء الإسلام من المستعمرين . واختاروا أكثر بلاد المسلمين ازدحاما بالمسلمين - شبه القارة الهندية - وقد كان من هدف هؤلاء الأعداء باستحداث هذه المذاهب وغيرها أن يزيدوا من هذه الخلافات المذهبية بين المسلمين ، وأن يعمّقوا فى نفوس المسلمين البعد عن دينهم الصحيح باغراقهم فى هذه الأباطيل والخرافات .

فالقاديانية مذهب خبيث هدام أنشأه وموّله وساعده أعداء الإسلام من المستعمرين الإنجليز فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى - الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى - يوم استطاع هؤلاء المستعمرون أن يقتنصوا من بين المسلمين رجلا تقلب أبوه فى خدمة الإنجليز ونعمتهم ، ونشأ هو كما نشأ أبوه خادما ذليلا لأعداء دينه - ذلك هو غلام أحمد القاديانى المولود فى بنجاب سنة ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩م فقد غرس الإنجليز بذور هذا المذهب الخبيث فى شبه القارة الهندية -- وكانت مستعمرة لهم - وقد نمت البذرة وخرجت على المسلمين بالكفر البواح والشرك الصراح وخاض مأفونها فى ذات الله وشخصية الرسول ﷺ ماشاء له ضلاله وما أرضى سادته وموجهيه .

وقد انتقلت ثمار هذه البذور إلى أفريقية بين المسلمين هناك . فسمى القاديانيون هناك أنفسهم «أحمدية» تمويها على الناس وإيهاما لهم بأنهم منتسبون إلى النبى ﷺ . بينما الحق أنهم ينتسبون إلى غلام أحمد القاديانى .

ولا أحب أن أفصل الحديث عن القاديانية فى هذا البحث ولكنى أشير

إليها إشارات تدل عليها وتكشف خبث مواردها ومصادرها ، وأن أدينها بما قاله مؤسسها غلام أحمد القادياني . ويحسي ذاك في هذا المجال لكي أكشف عن خيانتها وضلالها وعمالتها للإنجليز .

أولا : من كلمات غلام أحمد القادياني :

١ - أكثر من دخلوا في جماعتي هم أعضاء الحكومة الإنجليزية الشاغلين المناصب العليا أو رؤساء هذه البلاد وتجارها . أو المحامون والمتعلمون الدراسة الإنجليزية أو العلماء والفضلاء الذين خدموا الحكومة الإنجليزية في الماضي أو يخدمونها الآن وأقاربهم وأحبابهم . فالحاصل أن هذه الجماعات كونت من مربيتها الحكومة الإنجليزية وحصلت على رضاها وأصبحت مورد إنعاماتها . . فأنا والعلماء الذين اتبعوني بينوا للناس إحسانات هذه الحكومة ورسخوها في ألوف القلوب [١]

٢ - نحن نتحمل كل البلايا لأجل حكومتنا المحسنة وسنتحمل أيضاً في المستقبل لأنه واجب علينا أن نشكرها لإحسانها ومنها علينا . ولا شك نحن فداء بأرواحنا وأموالنا للحكومة الإنجليزية . ودوما ندعوا لعلوها ومجدها سراً وعلانية [٢]

٣ - نص العريضة التي قدمها غلام أحمد لنائب الملك في الهند وهي : «العريضة التي أعرضها إلى حضرتكم مع أسماء أتباعي ، ليس المقصود منها إلا أن تلاحظوا الخدمات الجليلة التي أديت أنا وآبائي في سبيلكم ، وكما ألتمس وأرجو من الدولة العالية أن تراعي الأسرة التي أثبتت بكمال وفائها وإخلاصها طوال خمسين سنة بأنها من أخلص المخلصين للحكومة والتي أقر وأعترف بولائها أكبر أمراء الحكومة العظمى

---

(١) الحافظ إحسان إلهي ظهير : القاديانية : ٦ ، ٧ .

(٢) السابق : ٢٦ .

وحكامها وكتبوا لها وثائق وشهادات على أن هذه الأسرة أسرة خدام وأسرة مخلصة . فلذا أرجو منكم أن تكتبوا للحكام الصغار برعاية هذه الشجرة وحفظها . التي ما غرسها إلا أنتم ، كما أرجو أن ينظروا إلى أتباعي بنظرة خاصة ودية ، لأننا ما تأخرنا من التضحيات في سبيلكم لا بالنفوس ولا بالدماء كما لا نتأخر بعد ذلك فلأجل هذه الخدمات الجليلة نستحق أن نطلب من الحكومة العظيمة المد والعون لكي لا يجرؤ أحد علينا » [1]

ثانيا : من كلمات خليفة غلام أحمد وولده :

١ – حينما دخلت جيوش انجلترا العراق المسلم منتصرة مزهوة بالقضاء على حصن من حصون الإسلام أقام القاديانيون حفلا أعلنوا فيه سرورهم وفرحهم بهذا الانتصار . وألقى خليفة غلام أحمد وولده خطاباً بهذه المناسبة هذا بعضه :

« إن علماء المسلمين يتهموننا بتعاوننا مع الإنجليز ويطعنوننا على ابتهاجنا على فتوحاتها فنحن نسأل لماذا لا نفرح ؟ ولماذا لا نسر ؟ وقد قال إمامنا : بأني أنا مهدي وحكومة بريطانيا سيفي – فنحن نبتهج بهذا الفتح ونريد أن نرى لمعان هذا السيف وبريقه في العراق وفي الشام وفي كل مكان . . إن الله أنزل ملائكته لتأييد هذه الحكومة ومساعدتها » [2]

٢– عندما جند القاديانيون رجلين منهم للتجسس على المسلمين في أفغانستان لحساب الإنجليز هناك فقبض على الجاسوسين وأعدما كتب خليفة غلام أحمد وولده يقول : لو سكت رجالنا في أفغانستان وما أظهروا عقيدتنا في الجهاد لما كان عليهم شيء . ولكنهم ما استطاعوا

---

(١) السابق ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) السابق ٣١ .

أن يكتموا حبهم ومودتهم لحكومة بريطانيا التي حملوها من عندنا فلذلك لقوا حتفهم»[1]

أما تطاول القادياني وخليفته وأتباعه على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام. فلا أبيح لنفسي أن أذكره. كذلك ما تخبط به في فهم القرآن الكريم - مما يدل على جهله وضلاله. وما كتبه ذلك المأفون من نبوءات تكشف عن حمقه وسفاهته.

فالقاديانية -- ركيزة من ركائز الغزو الفكري للإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا

---

(١) السابق : ٣٢.

البابية والبهائية

البابية والبهائية من المذاهب الخطرة والفلسفات المعادية للإسلام. والتي كان لليهود فيها يد طولى. وإن اختيار بلاد فارس ليفرخ فيها هذان المذهبان لم يكن عبثا من المدبرين والكائدين للإسلام.

فبلاد فارس ظلت على مدى فترات طويلة من تاريخ الإسلام مصدرا للقلاقل والفتن والحركات المعادية للإسلام.

وأثر اليهود فى الحركتين الخبيثتين واضح لا نجد عليه من الأدلة ما هو أنصع ولا أقوى من أن زعيم البهائية فى فترات ما من تاريخها كان أحد حاخامات اليهود.

منشأ البابية - التى هى أصل البهائية - أن الميرزا على محمد الشيرازى. أغواه يهوديان فأوهماه أنه سيكون له شأن. وأدخلا فى روعه أنه سيصبح منقذ الإنسانية. فنادى بما ينادى به اليهود. فأنكر البعث والجنة والنار. وقال بوحدة الوجود كما يقول اليهود وأودع ذلك فى كتابه «البيان» وصادفت دعوة الميرزا هوى فى نفوس بعض الضالين من الفرس. فاغتر ميرزا بهذا وسمى نفسه «الباب» أى الطريق الوحيد الذى يوصل الإنسان إلى الله. وسميت الفرقة التى تبعته «بالبابية» ثم زاد غرور هذا المخدوع فادعى أنه «النقطة» أى منبثق الحق وروح الله، وجعل الباب إليه أحد مريديه المخلصين له واسمه «حسين بسرويه» من خراسان.

وفى مؤتمر برشت ١٢٦٤ هـ - ١٨٤٧ أعلن البابيون انسلاخهم عن الإسلام. وحاربوا الإسلام واللغة العربية ودخلوا مع الحكومة فى فارس فى

حروب ومنازعات أدت فى النهاية إلى إصدار الحكم باعدام الميرزا «النقطة» وخبا صوت هذه الفلسفة الضالة . والمذهب المعادى للإسلام حيناً غير طويل من الزمان . ثم أخذ أتباعه يعملون فى الخفاء والسرية ودخل فيها عدد كبير من اليهود .

وفى عام ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م خرجت البابية من عكا باسم جديد هو البهائية نسبة إلى زعيمها الجديد ميرزا حسين على المازندرانى الذى يلقب «بهاء الله» ومن المقرر أن حياة البهائيين فى عكا بين جماعات اليهود أثرت فيها تأثيراً كبيراً وباعدت بينها وبين الإسلام إلى حد أنها أصبحت وجها آخر لليهودية .

ولما مات البهاء فى عكا خلفه ابنه عباس أفندى الذى كان فى خدمة الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى فأنعمت عليه بريطانيا بلقب سير وبرتبة فارس ولما توفى عام ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م خلفه ابن بنته «شوقى ربانى» الذى مات دون أن ينجب ولدا .

وقد رعى اليهود - ولا يزالون يرعون - البهائية ودفعوا بها الى أقطار الأرض يؤيدونها بالفكر والمال . فأصبحت حركة صهيونية أمريكية وأسفرت عن وجهها الصهيونى حين توفى ميرزا شوقى ربانى فاجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية فى إسرائيل وانتخبت صهيونيا أمريكيا اسمه « ميسون » ليكون رئيسا روحيا لجميع أفراد الطائفة البهائية فى العالم كله .

الماسونية والروتاري

الماسونية . ونوادى «الروتارى» لونان من نشاط اليهود المعادى للأديان عموما وللإسلام على وجة الأخص .

فالماسونية جمعية سرية أنشأها اليهود ليمارسوا من خلالها الأعمال التى توصلهم إلى أهدافهم وأغراضهم . ولأن هذه الجمعية من الجمعيات السرية اختلف الباحثون فى تاريخ إنشائها . فمن الباحثون من يربطها بالكهانة فى عهد الفراعنة . ومنهم من يربطها بهيكل سليمان . ومنهم من يربطها بالحروب الصليبيه . ومنهم من يربطها بجمعية الصليب الوردى سنة ١٦١٦ م . ومنهم من يقول أنشئت فى القرن الثامن عشر الميلادى .

ويكاد يجمع الباحثون على أن الماسونسية هى جمعية البنائين الأحرار التى وجدت منذ أقدم العصور فى مصر وفلسطين واليونان .

وأهداف الماسونية الحقيقية كما يقول الحاخام الدكتور «اسحق وايز» : مؤسسة يهودية . وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكاراً يهودية من البداية للنهاية [1]

أما أهدافها الظاهرية كما يقول مكاريوس شاهين : فهى : «جمعية أدبية تخدم الإنسانية وتنور الأذهان وتنشر الإخاء . وتوطد الحب بين الأعضاء وتحثهم على الخير والإحسان لإخوتهم المحتاجين » [2]

---

(١) د .أحمد شلبى : اليهودية ٣٢٤ .

(٢) السابق : ٣٢٤ .

ولعل نظرة على القَسَم الذى يقسمه الماسونى تؤكد لنا أن هذه الأهداف الظاهرة التى تحدث عنها مكاريوس شاهين لا وجود لها . ونص القسم هو :

«أقسم بمهندس الكون الأعظم أنى لا أفشى أسرار الماسونية ولا علاماتها وأقوالها ولا تعاليمها وعاداتها . وأن أصونها مكتومة فى صدرى إلى الأبد .

أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحروف . وألا أكتب منها شيئا ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير وأرضى إن حنثتُ فى قسمى أن تحرق شفتاى بحديد ملتهب وأن تقطع يداى ويحز عنقى . وتعلق جثتى فى محفل ماسونى ليراها طالب آخر ليتعظ بها . ثم تحرق جثتى ويذر رمادها فى الهواء . لئلا يبقى أثر من جنايتى»[1]

وإن خطر الصهيونية لفادح يدركه المتأمل لأعمالها ولهذا القسم الذى يقسمونه ولقد أدرك هذا الخطر جميع العارفين لأهداف الماسونية . حتى إن بعض المجتمعات قد قررت إلغاء المحافل الماسونية فيها . وقد أدرك بعض المسيحيين خطر الماسونية على الدين المسيحى فصدر المرسوم البابوى ذو الرقم ٨٦٤ يحذر الكاثوليك من الاشتراك فى الهيئات السرية والمشتبه فيها على الإطلاق .

وأما أندية «الروتارى» فهى أنشطة علنية تؤدى مهماتها أو بعض هذه المهمات تحت ستار الإخاء الإنسانى .

وهى أندية منبثة فى أغلب العواصم والمدن الكبرى وأهدافها الظاهرية كما يقولون هى : النظر فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات

---

(١) السابق : ٣٢٥ ـ ٣٢٦ نقلا عن : محمد على الزعبى : الماسونية منشئة ملك إسرائيل .

والخطب . والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة والبلدان المتحدة .

اما الغرض الحقيقى فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود . ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جميع المعلومات التى تساعدهم فى تحقيق أغراضهم اقتصادية كانت أو صناعية أو سياسية .

ولقد فطن الفاتيكان أيضاً إلى خطر هذه الأندية «المسماة الروتارى» فصدر مرسوم من المجلس الأعلى المقدس فى العشرين من ديسمبر سنة ١٩٥٠ م قرر فيه الكرادلة ما يلى :

«دفاعاً عن العقيدة وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة «بنادى الروتارى» . وعدم الاشتراك فى اجتماعاتها . وأن غير رجال الدين يطالبون بمراعاة المرسوم ذى الرقم ٦٨٤ الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها» (١)

فالماسونية وأندية الروتارى مراكز خطر محدق دائماً بالعالم الإسلامى .

وبعد : فهذه صورة مجملة للمراكز والركائز التى ينطلق منها الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام والمسلمين . أردت من رصدها والتعريف بها أن أدل عليها وأعرّف المسلمين بمكامن الخطر المحيط بهم وبدينهم لعل الله أن يهدى بكلماتى هذه من يستطيع أن يرد عن هذا الدين كيد الكائدين وحقد الحاقدين . إننى بهذا البحث إن وصلت إلى هذا أعد نفسى من الموفقين

---

(١) السابق ٣٢٨ .

خاتمة

كما افتتحنا هذا البحث بحمده سبحانه والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله نختم كلامنا فيه بشكر الله سبحانه والثناء عليه بما هو أهله . والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله .

وقد حاولت فى مدخل هذا البحث أن أعرّف بالغزو الفكرى وأن أحدد مفهومه وأبعاده التاريخية .

وفى الباب الأول حاولت أن أرصد مظاهر هذا الغزو وتياراته . وأن أكشف عن حملات التشويه التى وجهها أعداء الإسلام وعلى رأسهم المستشرقون والمبشرون وأدعياء العلم من هنا وهناك إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وصاحبها عليه الصلاة والسلام . وإلى تاريخ المسلمين ونظام الحياة الإسلامى والتراث الإسلامى بعامة .

وفى الباب الثانى جعلت جهدى أن أتتبع نوعاً آخر من الحملات الموجهة ضد الإسلام هو حملات التغريب أى تحويل المسلمين عن إسلامهم وتاريخهم إلى الغرب وحضارته . تلك الحملات التى استهدفت التعليم والثقافة بالدرجة الأولى . وتناولت تغريب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات الإسلامية كلها . ودللت – ما وسعنى البحث والتحرى – على الأصابع والقوى التى تحرك هذه الحملات وترسم لها خطوطها ومخططاتها وأوضحت أن الهدف من هذا التغريب هو صرف المسلمين عن إسلامهم وإلقاؤهم أتباعاً خاضعين على أعتاب الحضارة الغربية المعادية .

وفى الباب الثالث : رصدت ركائز هذا الغزو الفكرى وأدواته ووسائله . ووجدت من أبرزها الصهيونية أو اليهودية . والتبشير والاستعمار .

والنظريات والمبادىء المعادية للإسلام مثل : الديموقراطية والشيوعية والاشتراكية . والقوميات بأنواعها العديدة . والفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية والقاديانية أو الأحمدية والبابية والبهائية والماسونية والروتارى وغيرها . ودللت كذلك على الأصابع التى تحرك هذه المراكز وعلى العقول التى تخطط وتدبر لها . كيداً للإسلام وحقداً على المسلمين .

وقد أعانى الله وأمدنى من الأسباب بما مكننى من إنجاز البحث على هذا النحو الذى عرضت . فإن كنت قد وفقت إلى ما أردت فذلك فضل من الله أولانيه يستوجب منى أجزل الشكر وأعمق الثناء . وإن كنت جانبت الصواب فى بعض ما قلت . فأنا أعترف بأنى المخطئ المقصر . وبأن عملى يحتاج إلى إعادة نظر وإجالة فكر . وبأنى محتاج أبداً إلى مغفرة الله وتجاوزه عن غفلتى أو تقصيرى . وحسبى أنى سددت وقاربت وقصدت وجه الله . ورجوت نفع المسلمين .

وما ادعيت – ولن أفعل – أن ما كتبت عن الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام هو العمل الكامل – لأن الكمال لله وحده – ولا هو التحليل الأخير – كما يقولون – وإنما كل ما أرجوه أن يكون ما كتبت فى هذا الموضوع حافزاً لبعض إخوانى على أن يزيدوا البحث عمقاً ويولوه اهتماماً أكبر . لعلهم يصلون بذلك إلى ما لم أصل إليه .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

ونحمده فى الأولى والآخرة . بل آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

د . على عبد الحليم محمود
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض

الفهرس

رقم الايداع ٧٩/٢٣٢٨

الترقيم الدولي ٧ ـ ٥٠ ـ ٧٠٥٩ ـ ٩٧٧ ISBN

دار ابن الأثير للطباعة والنشر
جامعة الموصل